الباب الأول

العقائد

١ - آمَنتُ بالله

أول أركان الإيمان؛ أي أول العقائد الأساسية الإسلامية، الإيمان بالله تعالى خالق كل شيء. والإيمان: تصديق بالجنان، وإقرار باللسان.

الإنسان منذ بداية خلقته يفكر في أمر تكوينه وتكوين العالم، ويتقصى أسرارهما. وإذا صرفنا النظر عن الفروع والتفاصيل، ألفينا أنفسنا إزاء ثلاث عقائد ومذاهب نشأت من هذا التفكير:

الأولى: أن كافة المكونات خلقها خالق أزلي قادر حكيم مطلق، وهذا المذهب مذهب الإلهيين والروحيين، كما هو رأى أكثر المتفكرين والمتفننين. وهذا الرأي الملائم للقواعد الدينية في مبحث التكوين، ملائم كذلك لمشاهدات الإنسان وتأملاته، وما ألفه من الإدراكات الوجدانية الحائة على البحث عن مؤثر لكل أثر.

الثانية: نظرية الملحدين أو الماديين. ويقول أصحابها إن المكونات منتشرة منذ الأزل في الفضاء، وإن المادة والقوة أو الجوهر الأصلي الذي يجمعها في نفسه، ويتعذر إدراك أصله وماهيته، قد وصل إلى ما وصل إليه الآن بتأثير الحركة الدفعية المتمادية، التي تقع من أجزائه الفردية، بما هي حائزة له طبعاً من الخواص، كالجذب والدفع، وكانت النتيجة امتزاج

الأجزاء الفردية وتشكلها وتطورها على النحو الذي نراه الآن. فهؤلاء ينكرون الخالق القادر العليم الحكيم. وهم بتفكيرهم على هذا النحو، واعتقادهم أنهم وجدوا ما يعتمدون عليه لإثبات دعواهم، يعتقدون أن عقولهم التي يفتخرون بها، ليست إلا أثراً لامتزاج مادة غير مدركة وتركبها بقوة غير عاقلة، أو أجزاء جوهر جامد- امتزاجاً مبنياً على الاتفاق فحسب.

بيد أن هؤلاء يعجزون عن بيان حقيقة المادة والقوة، أو الجوهر الأصلي الذي يجمعهما، كما يعجزون عن إيضاح ماهية السكون والحركة، ويقيمون نظرياتهم كلها على فرضيات عندية ابتدائية، أي أننا حينما نرى أهل الدين يؤمنون بالخالق المتعال، ويجمعون كافة ما يشعرون به إزاء الخلقة من الحيرة في حكمته، نرى الماديين يهيمون في الموهومات، ويضربون في مهامه المجهولات.

ويقف في وجه هؤلاء منذ عرف التاريخ أمثال هذه الملاحظات الفلسفية- أولئك الذين يذهبون مذهب الروحيين، الذين يقبلون للخلقة سبباً أزلياً مدركاً، وأولئك الذين يذهبون مذهب الوجوديين، الذين سنذكرهم فيما بعد، أعني بهم الذين يعتقدون أن كافة الموجودات عبارة عن تجليات كل مطلق، عدا ما بين هؤلاء الملحدين الماديين من أفكار مختلفة متضادة، وفرق متعارضة، ظهرت في زمن واحد، وبيئة واحدة، وكان من أثرها أن لم يفز المذهب المادي في أي وقت وفي أي مكان، بثقة عامة وقبول عام، على النحو الذي فازت به الأديان.

فنظريات الماديين في موضوع الخلقة لا تفيد اليقين بأي وجه من الوجوه، فإن من المعلوم أن أقرب ما وضعه البشر من اليقين في ساحة العلوم علم الرياضيات، وعلم الطبيعة والكيمياء والهيئة تُدعم أكثر أحكامها بالرياضيات والتجارب الدقيقة والحوادث الكونية، فهي- كما بلغت أخيرا من الرقي- تعتبر في أكثر أحكامها من العلوم اليقينية. والفلسفة- وإن كانت تستند في دعاويها وأحكامها على الملاحظات المستخرجة من هذه العلوم- تستند في أحكامها الخاصة بمبحث الوجود والخلقة إلى الأقيسة والاستدلالات، ولا تستند إلى التجارب والحسابات الصحيحة. ومع أن البحث المستمر والاكتشافات المتوالية تؤدي إلى تغيير في الفرضيات والنظريات التي تستند إليها هذه العلوم، فأرباب العلم متفقون غالباً، في حين يختلف الفلاسفة، ولا يزالون منقسمين بالتضاد الكلي بين الإلهيين والماديين.

وخليق بالذكر أنه كلما اتسع نطاق العلوم، وانكشفت دقائق الطبيعة وأسرارها، فقدت فلسفة الماديين مكانتها. وهؤلاء أكابر رجال العلم والدين خدموا الإنسانية باكتشافاتهم العلمية أكبر الخدم، من أمثال «نيوتن» و «باستور» وغيرهما من مشاهير الحكماء يعتقدون جميعاً ويؤمنون بقوة خالقة مدرِكة متعالية عن إدراك البشر، أو يعتقدون أن للخلقة سراً لا يُدرَك، ويعربون عن ذلك المعنى بعينه.

وهذه الكلمة التي قالها «هرشل» من مشاهير الحكماء في القرن الثامن عشر لَمِن تلك الكلمات التي تتأيد بمر الزمان: «إنه كلما اتسع نطاق

العلوم تحققت وكثرت الأدلة على وجود حكمة خالقة قادرة مُطلَقة. وعلماء الأرضيات والهيئة والطبيعيات والرياضيات يهيئون بمساعيهم واكتشافاتهم كل ما يلزم لإنشاء معبد العلوم- إعلاء لكلمة الخالق».

وأما أكثر من صادفت من المفكرين فقد كان إنكارهم سماعياً وتقليدياً، فهم يتعلمون بعض أقوال الفلاسفة، ويتخذونها سنداً لدعاويهم، دون أن يدرسوا قواعد مذاهبهم ونظرياتهم، بل دون أن يطالعوا خلاصة وافية لمؤلفاتهم. وخلاصة قولهم «أنهم لا يؤمنون بما لا يرون ولا يفهمون»، أو «إن نقولَ علماء الدين لا توافق العلم». في حين أنهم لا يعرفون من الفنون شيئاً، ولا يدركون من أسرار الدين شيئاً، ولا يستطيعون أن يقيسوا الموضوعات العلمية والعقائد الدينية قياساً عادلاً. بيد أنه ما دام هؤلاء الناس يعتبرون أنفسهم من جهابذة الفنون، فإني سأعتمد في دفاعي على الأدلة العلمية والعقلية، على قدر استطاعتي، وسأستشهد بأقوال أكابر السلف والمعاصرين من الحكماء.

عقيدة فلاسفة اليونان في الله

من المعلوم أن سقراط وأفلاطون وأرسطو وإكسنوفان الذين يعتبرون آباء فلسفة الغرب، كانوا بصرف النظر عن الفروع، يعتقدون في إله واحد، ذاته وحقيقته فوق الإدراك. وإني أنقل هنا من تاريخ التصوف للأستاذ محمد على عيني بك- بعض آراء سقراط عن تلميذه أفلاطون: «... هذا العالم يظهر لنا على هذا النحو، لم يُترك فيه شيء للمصادفة، بل كل جزء من أجزائه متجه نحو غاية، وتلك الغاية متجهة نحو غاية أعلى منها،

وهكذا يتم الوصول إلى غاية نهائية منفردة وحيدة. من أين نشأ هذا النظام الكامل في تفرعاته، المحفوف بالعظمة والجلال من كافة نواحيه؟ ليس من الممكن أن يحمل ذلك على المصادفة، فلو أمكننا أن نقول إنه نشأ من تلقاء نفسه، لصح لنا أن نقول إن ألواح «پوليكلت Polyclète» و «زويكسيس Zoexis» حدثت من تلقاء نفسها. وإذا ما نظرنا إلى أن العناصر التي تحتوي عليها الكائنات كثيرة إلى درجة لا يمكن أن يحصرها العقل، كان من المحال أن نحمل وجود كل ذلك على المصادفة. فلا بد إذن من وجود عقل أعلى [١٠] ... وهو الصانع الوحيد، لأن الطبيعة أثر يتجلى فيه الاتحاد الدال على وحدانية الصانع، الذي ينفذ حكمه كنفوذ الفكر في الحال بدون أي خطأ. وهو حاضر غالب (في العقائد الإسلامية: عالم قادر) ومع هذا فمن المستحيل إدراكه بالحواس، فهو كالشمس التي تمس جميع الأبصار، لكنها لا تبيح لأحد أن ينظر إليها ...».

هذه الكلمات التي نطق بها سقراط، والتي تلائم الإدراك الفطري البشري، لها قيمة علمية منطقية، سنوضحها فيما يلي:

طرق المعرفة

من الضروري الاعتراف بأن الأحوال والأفكار التي تتبادر للعقل والوجدان، إما عن طريق الذوق، أو الحس الطبيعي، أو بواسطة القواعد الكلية المستنبطة من المشاهدات المتوالية- هي حقائق؛ فإن لم يُعترف بذلك لم يكن ثَمَّة مجال لوضع مبدأ يُبتنى عليه البحث العقلي. فالفكر

الداعي إلى البحث عن مؤثر لكل أثر، وعن محول لكل حال، وبالجملة عن علقة لكل شيء- يلزم أن يكون حقيقة. إن الأسباب القريبة المؤدية إلى حدوث المكونات على العموم أو على الانفراد- تمكن رؤيتها، ويمكن فهمها، ولكن يدرك الذهن أيضاً- بطريق القياس- أن لهذه الأسباب أسباباً أخرى. فمثلاً أقرب الأسباب للطفل أبواه، وأقرب الأسباب لحدوث النبات ونشأته البَذر والتراب. بيد أن وجود هؤلاء يتطلب تسلسل الآباء والأمهات والبذور، ويستلزم وجود التراب. فمن أين ينشأ هؤلاء؟ ثم لا بد من وجود قوات وعوامل ومواد كثيرة، كالهواء النسيمى للتنفس، والطعام والشراب للتغذي، وحرارة الشمس وضيائها وغير ذلك، مما يعتبر لازماً وملزوماً لحصول الحياة. وإذا درسنا المسألة درساً عميقاً من الوجهة العلمية، كثر عدد هذه العوامل وتسلسل، ويبحث العقل عن مؤثر آخر لكل منها. وقد ينتهي استقصاء بعض من هذه العوامل والمؤثرات إلى الأرض والشمس. وإذا قبلنا ذلك وعلمنا أن الملايين من أمثال الشمس وتوابعها ليست أزلية أبدية، بل حادثة آفلة فانية، وثبت لنا ذلك ثبوتاً علمياً- وجب علينا إذن البحث عن المنابع التي حدثت منها هذه العوالم. لو قُبِلت نظرية الحكماء التي تقول إن الشموس تحدث من تكاثف السحابيات نحو مركزها، أو من الحرارة الشديدة التي تحدث من تصادمها[١١]، ومن نتيجة التفاعلات الكيميائية التي تستلزمها، فإنه لابد للبحث عن عامل يسبب تشكل هذه الأجسام الغازية، التي نرى أمثالها العديدة في قبة السماء من ثلاثة عناصر بسيطة، أي من توزيع وتركيب هذه العناصر في الفضاء داخل نسبة وكثافة معينة [١٢].

أما النظريات الطبيعية والكيميائية الحديثة فتقول إن (أتومات) الـ«هليوم» والـ«نيليوم» تمتزج وتتركب بـ(أتومات) ال«إيدروجين» مثنى وثلاث فصاعداً، وعليه يفرض أن المادة تنتهي إلى عنصر واحد. وإيجاد جميع هذه المركبات من عنصر واحد يحتاج إلى مصوِّر ولا شك. ولو قُبل ما يقال- موافقاً لأحدث الاكتشافات العلمية- من أن المادة تحصل من تكاثف القوة [١٣]، فإن العقل لا بد أن يبحث عن متصرف في هذه القوة، وعن محول لها، لتبديل ماهيتها. فإذا وصلنا هنا- أي إلى القوة والأثير- تبدلت سلسلة الأسباب، وانتقلت إلى ماهية أخرى، أي إلى شيء لطيف معلوم بآثاره، ومجهول بكنهه وحقيقته.

وحيث إن كل ما يصل إليه الفكر والنظر من منشأ وعلة بين المشهودات والمحسوسات- حادثةٌ ومتحولة، ومحتاجة إلى علة أخرى، فمن الضروري أن يتحرى العقل والوجدان أسباباً أخرى فوق المشهودات والمحسوسات. وهذه الأسباب الغيبية- وإن توالت إلى درجة ما في محيط الأثير وعالم الغيب- فلابد لها أن تسير سير سلسلة العلل الظاهرية، وأن تنتهي إلى علة أصلية أولى، لأن السلسلة تنتقل من الفروع إلى الأصول، كما تنتقل من التركب إلى البساطة؛ ومن الكثرة إلى القلة، فيلزم إما أن تتصل بالواحد، أو تنتهي إلى الصفر. وحيث إن العدم لا يمكن أن يكون علة الوجود، فمن المحال احتمال انتهاء سلسلة الأسباب إلى الصفر، ومن الضروريات العقلية اتصالها بسبب أول، وموجود بذاته، وهو «مسبب الأسباب».

قد يقال بإزاء ذلك، إنه ما دام كل شيء مرتبطاً بعلة، فلا يقبل العقل وجود علة أولى غير معلولة، فلا بد إذن من استمرار العلل والأسباب بلا نهاية. ولكن الأشياء التي يتحرى الإنسان علل حدوثها هي المكونات الحادثة الفانية. أما العلة الأولى وماهيتها غير ماهية المكونات، فهي أزلية وبعيدة عن كل تغير. إن الإنسان الذي يرى كل شيء حادثاً وفانياً، لا يمكن أن يدرك الأزلية بسهولة، ولكن اللانهائية أيضاً فوق إدراك العقل كالأزلية. فالقول بتسلسل لا نهائي لا يمكن أن يقنع العقل، ولا يفيد في حل المسألة. ثم إن العلة كما أوضحنا فيما سبق عند وصولها إلى الوحدة، وغاية البساطة، ينبغي ألا تتغير، أي أن تحافظ على ماهيتها؛ فمن العبث إذن أن تتصور هوية تتسلسل بعينها، وتتعاقب بصورة الحدوث والفناء على الدوام بدون تغير [١٤].

والعقل البشري يرى أن حدوث شيء من العدم في لحظة مفروضة بلا علة من المحالات. فلا شك أنه بعد رفض جميع الاحتمالات التي يحكم ببطلانها حكماً قاطعاً، لا نرى مناصاً من قبول المسبب الأول الأزلي، والتصديق به؛ مع عدم إدراك كنهه. نعم إن هذا الاعتقاد اعتراف بالعجز عن الإدراك، لكنه برئ من مناقضة الحقائق التي تدرك.

وإذا استقصى القارئ ما بسطنا من الاستدلالات في هذا الكتاب، رأى أن القضايا والفرضيات التي رُدَّت، هي باطلة عقلاً وعادة، وهي من العبث والمحال. وأما الكيفيات التي لم يصل إليها العلم البشرى، فلا يمكن رفضها جُزافاً. فمثلاً إذا قيل لقروي قدم إلى إستانبول للكسب والتجارة:

إن قريته المكونة من عشرة بيوت قد نمت وكَبِرت في سنة واحدة بفضل عُمدة القرية، حتى أصبحت أكبر من إستانبول، كان من حق المخاطب بهذه الرواية تكذيبها ورفضها. وإذا قيل إن في الدنيا مدينة تسمى نيويورك، يبلغ عدد سكانها عدد نفوس تركيا بأجمعها، وإنها تحتوي على مبان عالية يبلغ ارتفاع كل منها أربعين أو خمسين طبقة. فلا يصح تكذيب هذه الرواية ورفضها، لمجرد عدم العلم بهذه المدينة، أو عدم رؤيتها. وقد بيَّنا في مقدمة هذا الكتاب أن العلم البشري محدود بحدود طبيعية لا يستطيع أن يقتحمها، وأن في هذا العالم موجودات لا يمكن الاعتقاد بوجودها إلا بالاستدلال من آثارها، وبسطنا على ذلك الأمثلة المستمدة من الطبيعة.

مثال لإيضاح مسألة الخلقة

بيد أنا نبسط هنا مثالاً آخر توضيحاً لمسألة الخلقة على قدر الإمكان.

من المعلوم أن عقارب الساعات تتمم دورها في أزمنة معينة، بواسطة تروس أو دواليب ذوات أسنان متداخلة، تتحرك بحركة متسلسلة بتأثير الزُّنبرك. وهذا التركيب على صغره تشاهد فيه سلسلةُ أسباب، ثم تشاهد أسباب متوسطة هي التروس التي ترى من جنس واحد، في أبعاد مختلفة، في حين إن الزُّنبرك هو المحرك، والرقاص هو المنظم في شكل آخر، وطبيعة أخرى.

هذا مثال قريب نلتمس به إعطاء فكرة عن الأفلاك، ولكن لا تنتهي المسألة بذلك، لأن الساعة لم توجد من تلقاء نفسها، بل لها صانع، وهذا

الصانع هو ساعاتي، وإنسان في ماهية غير ماهية مصنوعة. وهذه العلاقة التي بين الصانع والمصنوع يمكن أن تعطينا فكرة إجمالية عن العلاقة التي بين المسبب الأول وعالم الكون، بشرط تكبير الفرق بين الحدين المتناظرين إلى اللانهائية. إن النوع البشري، لكونه حائزاً تلك المواهب الطبيعية التي نسميها العقل والذكاء، يميل فطرة للبحث عن حقيقة الخلقة، وهو قادر على الاستدلال على وجود الخالق والإيمان به، ولكن لا يمكن أن يتجاوز في فهم حقيقته ما تفهم الساعة من حقيقة الساعاتي.

إن العقل السليم بتصديقه بالقيوم الأزلي الخارج عن المكونات- مسبباً أول، يَروِى ما يشعر به من التعطش إلى استقصاء سر الخلقة، ويدفع كل ما يرد بالخاطر من أنواع الشبه والتناقضات؛ ومهما قال الفلاسفة فإن تصور مكوّن للمكونات على غير ماهيتها، أمر لا يخالف العادة. والأمر أن وجوداً أزلياً على غير ماهية الأشياء، ينبغي أن يكون فوق إدراك الإنسان الذي يعتبر فانياً من جهة حياته الدنيوية.

وهذه النتائج الفلسفية لتعاليم القرآن الكريم، الذي يقول: «ليس كمثله شيء». ويقول: «الله لا إله إلا هو الحي القيوم»، دالاً بذلك على أن الله تعالى لا يماثل الأشياء، وأنه إله واحد حي سرمدي. ويقول القرآن الكريم كذلك: «ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء»، دالاً بذلك على أن العلم البشري قد قدرته المشيئة الربانية وحددته، وأن الإنسان إنما يقدر على إدراك الوجود الواجب، ولكنه يقصُر إدراكه عن إدراك كنه ذاته.

نستخرج من هذه الملاحظات العقلية:

أولاً: أنه لابد من علة أولى- أو مسبب أول- لحدوث الكائنات. وحيث أنه ليس في العدم قوة العِلية، فوجود هذا المسبب الأول ضروري، فهذا المسبب الأول هو بالتعبير العلمي واجب الوجود.

ثانياً: المسبب الأول موجود بالذات، وأزلي، وإلا يلزم أن يظهر من العدم، وهو محال وعبث.

ثالثاً: لا يكون المسبب الأول مقيداً بقيد أو شرط أو علة، لأن تقدم هذه القيود والشروط عليه ينافي أزليته، ومن العبث أن يخلق لنفسه قيوداً وشروطاً من بعد، وإذن فالمسبب الأول مطلق.

رابعاً: من الطبيعي أن تؤثر العلة في المعلول، والتأثير منوط بالقوة، وإذا ما درس الإنسان عالم الخلقة، وتدبرها على قدر إدراكه، واعترف بمسبب ومؤثر لحدوثها، فإنه لا يتحرى دليلاً لإثبات قدرتها غير أثارها- أي الكائنات- وإذن فالمسبب الأول قوي قادر مطلق.

وهناك نكتة مهمة في مثال الساعة الذي أسلفنا:

من البديهي أن الساعاتي لا يمكنه إيجاد الساعة بمجرد جمع قطع من الفولاذ والنحاس الأصفر كما تتفق، وربط بعضها ببعض كما يتفق، بل لابد له من تعيين حجم الزُّنبُرك وشكله وقوته وأبعاد الرقاص، وقطر التروس (الدواليب) وثخانتها، وأبعاد أسنان التروس على حساب صحيح،

لما بين الأقسام المتنوعة من نسب، وهذا يستلزم أن يكون الساعاتي من أرباب الخبرة وأصحاب المعرفة. فهل ترى أن أمر خلقة الكائنات كذلك يُبْتَنى على علم وحساب؟ وهل المسبب الأول ذو علم وسيع وحكمة بالغة؟ نثبت هذا الأمر فيما يلي:

لقد آمن الفيلسوف الشهير «دِكارت» بوجوده، بعد أن كان يرى الموجودات كلها بعين الشك، فقال: «أفكر فإذن أنا موجود». ثم إنه لم يقف عند ذلك، ورأى أن هذا التفكير يدل على أن له واهباً حقيقياً، وأن ذلك الواهب منبع لا نهائي، ووجود كامل أزلي، واستدل بذلك على أن العالم موجود. ويفهم من هذا الكلام أن الحكيم الشهير يتصور أن وجود الكائنات بثبت بالتفكر، وأن موجِدَها ذو شعور، أي ذو حكمة غير متناهية. وكما أن الصانع والمصنوع ليسا من ماهية واحدة، كذلك الواهب والموهوب لا يلزم أن يكونا من ماهية واحدة. وحيث إن خزانة علم الواجب الحقيقي وحكمته أعلى وأكمل الخزائن، فإنها تختلف عن جزء الذكاء الذي يتجلى في الموجودات، ولن يتصور أي مفكر أن واهب العقل والحكمة هو وجود جامد.

رأي لابلاس في المسبب الأول

إن لابلاس المعتبر من أكابر الحكماء في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والمعدود من شيوخ الرياضيين والفلكيين على الأخص، يقول بعد إيضاح مجموعة الشمس: «إن النظام المحير للعقول، المشاهد في حركات الأجرام التي تتألف منها المجموعة الشمسية، لا يمكن أن يحمل

على التصادف. بل التصادف كلمة لا يصح النطق بها في لغة العلم. إن التصادف معدوم ومحال في هذا العالم الذي نرى فيه كل شيء خاضعاً لقوانين الموازنة وقوانين الحساب، التي عينتها إرادة غيبية، وحكمة بالغة. وما الشيء الذي ندعوه التصادف إلا محصّل القوات الغيبية التي لا نعلم عن صورة تأثيرها شيئاً، بل لا نعلم عن وجودها شيئاً، في حين أنها تحفل حولنا. وبناءً عليه ليس من الممكن حمل هذا النظام الذي نراه في المجموعة الشمسية على التصادف، ولابد من الاعتراف بوجود سبب أصلي عام منظم لهذا النظام». ويبحث الحكيم المشار إليه في كتابه «نظام العالم» في موضوع حركات السيارات وتوابعها، وينتهي إلى قوله: إن اعتبار هذا النظام من آثار التصادف لا يصح أن يقال إلا بنسبة واحد في أربعة تريليونات. فإذا كان احتمال التصادف مستبعداً إلى هذه الدرجة، وجب الاعتراف بأن كون الخلقة تحت تأثير التدبير والإرادة على نسبة أربعة تريليونات (١٠/١٢ × ٤) من الاحتمالات، إلى احتمال واحد، وأقرب العلوم لليقين علم الرياضة فإن لم يعتمد عليه لم يكن مجال للشروع في البحث.

إثبات الوجود المطلق

قد يُستغرب التصدي لإثبات الوجود المطلق بقياس ونسبة، لكن كافة المدركات البشرية إنما تحصل بالقياس، فصحة كل فكرة وبطلانها أيضاً إنما يستدل عليهما عقلاً بالقياس. بيد أنه كلما زاد التعمق في المسألة اكتسبت قيمة يقصر أمامها العقل، فتزول النسبية، ويثبت واضحاً أن

الخليقة خاضعة لتدبير وتصرف أزلي. ويحسن أن نقف عند حساب لاپلاس قليلاً، لنعطي بعض معلومات مجملة عن المجموعة الشمسية.

إن السيارات الموجودة في المجموعة الشمسية تدور حول الشمس، والتوابع المنتمية لكل سيار (الأقمار) تدور حول سياراتها متتبعات لمداراتها على شكل قطع ناقص، وفق القوانين التي اكتشفها «كپلر» و«نيوتن» رصداً وحساباً. وحيث إن السيارات والأقمار كالشمس مالكة لقوة جاذبة، ولذلك تؤثر بعضهن في بعض تأثيراً متناسباً تناسباً معكوساً لمربع المسافة التي بينها، فإن مَحاركها يصيبها خلل متنوع، ويؤدي تكرر ذلك الخلل وتراكمه إلى تغيير المحارك وسقوط السيارات على الشمس، والتوابع على متبوعاتها، أو إلى خروجها من المجموعة الشمسية، أو تصادم بعضها ببعض، وحدوث أنواع المد والجزر والإعصار على سطوحها، أو غير ذلك من الاختلالات والأخطار. وقد اهتم علماء الهيئة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بجميع هذه الاحتمالات الهائلة، واستنتج لاپلاس بعد درس الجداول الرصدية المضبوطة منذ عشرين قرناً أن مجموعتنا الشمسية مصونة من أمثال هذه المخاطر، وبيَّن أن التوازن حاصل- بالرغم من أنواع التذبذب والتموج- من وقوع تلك الاضطرابات في صورة سلبية وإيجابية، ومضرة ومفيدة.

وقد أمكن في الزمن الأخيرة وضع معادلة بالحساب التفاضلي، لتعيين جوهر [١٥] وسرعة ومسافة ثلاثة أجسام متحركة، كالشمس والأرض والقمر، بحيث يكون أحدها في المركز ثابتاً جاذباً؛ وأحدها مشوشاً،

والآخر متشوشاً. بيد أنه ظهر بعد ذلك أن الرياضيات العالية غير كافية لوضع دستور يضمن النظام والتوازن لأكثر منها. أما القدرة الفاطرة فقد عينت جسامة الأجرام الموجودة في المجموعة الشمسية وكثافتها، وثبتت أقطار مداراتها، ونظمت حركاتها بقوانين بسيطة، ولكنها حكيمة، وعينت مدة دوران السيارات حول الشمس، والتوابع حول السيارات بأدق حساب، بحيث إن هذا النظام المستمر منذ تريليونات من السنين، بل أكثر، يستمر إلى ما شاء الله، ما لم يظهر سبب خارجي.

هذا النظام المستند إلى حساب يقصر عقل البشر عن إدراكه، والذي يضمن باستمرار واستقرار المجموعة إزاء ما لا يعد ولا يحصى من أنواع المخاطر المحتملة- لا يمكن أن يحمل على التصادف في نظر لاپلاس إلا باحتمال واحد في أربعة تريليونات. وما أدراك ما أربعة تريليونات؟! إنه عدد مركب من كلمتين، ولكن لا يمكن أن يحصيه المحصى إلا إذا لبث خمسين ألف عام يعد الأرقام ليلاً ونهاراً على أن يعد في كل دقيقة مئة وخمسين عدداً [١٦]!

لقد كان المعلوم من حركات السيارات والأقمار في زمان لاپلاس عبارة عن ٤٢، وكان لا يتجاوز عدد السيارات الصغيرة المعلومة بين المريخ والمشترى أربعة، والحال أن الرصدات الأخيرة دلت على أن أجزاء المجموعة الشمسية يتجاوز الألف. فإذا أجريت عملية الحساب الاحتمالى المبني على ٤٢ حركة على ألف حركة، بلغت نتيجة النسبة حداً لا يمكن أن يتصوره العقل. ثم إن هناك أمارات قوية على أن بعض

الكواكب الثابتة سيارات كسيارات الشمس؛ والدليل على هذا أنه يشاهد في قبة السماء كوكبان أو ثلاثة من الكواكب المضيئة يدور بعضها حول بعض، وما هي إلا من السيارات التي لم تخمد إلى الآن. وعدا هذا يوجد بعض الكواكب التي يضعف ضياؤها أحياناً. ويقول علماء الهيئة إن بعض هذه الكواكب يجرى على وجهة تحولات طبيعية كيميائية، أو أن جسماً مظلماً- أي سياراً- قد حال بيننا وبين الكواكب المذكورة. إن أمثال هذه الحوادث السماوية نادرة، ولكن هذه الندرة الظاهرة نفسها تدل على الكثرة، لأن حيلولة جرم في جسامة الزهرة أو الأرض، لا يمكن أن يقلل ضياء الكوكب في صورة محسوسة، بل ينبغي أن يكون الحائل في حجم المشترى على الأقل، أو أكبر منه، وكذلك ينبغي أن يكون سطح محرك هذا السيار منطبقاً على خط الشعاع الممتد بين الأرض والكوكب حتى يحول بينهما. لأنه إذا وقع انحراف بقدر واحد في الألف من الثانية بين سطح محرك سيار مفروض في أقرب مجموعة لنا، وبين خط الشعاع الواصل يستلزم التباعد بينهما بقدر ٢٠٠,٠٠٠ كيلو متر، وحينئذ لا يمكن السيار أن يحول دون رؤية الكوكب وتقليل ضيائه. على حين أن سيارات الكواكب في السماء يمكن أن تتحول سطوح محاركها إلى تسعين درجة، فيكون تحقق شرط الانطباق ضعيفاً جداً. وبرغم هذا فإن مشاهدة أمثال هذه الحوادث تدل دلالة قوية على أن كثيراً من الكواكب لها مواكب كمواكب الشمس، ومن جهة أخرى ثبت في نتيجة التحليل الطيفي أن من الثوابت ما هو في عُمر شمسنا، ومنها ما هو أضوأ وأقدم منها، ولا يمكن أن يحمل ما يرى من النظام في حركات هذه المنظومات منذ مليارات

وتريليونات من العصور، إلا على قوة مدبرة أزلية، كما هو الأمر في مجموعتنا الشمسية. بيد أنه كلما زاد عدد المجموعات زادت الاحتمالات، لا في سلسلة عددية، بل في صورة سلسلة هندسية. وسأشرح هذه الكيفية لغير المتوغلين في الرياضة بمقال ربما لا يعتبر ممدوحاً:

إذا أردنا مثلاً أن نسحب ورقة معينة من ٣٢ ورقة من أوراق اللعب، كان احتمال سحب تلك الورقة واحداً في ٣٢. ولكن إذا أردنا أن نسحب تلك الورقة من مجموعة أخرى قد أجيد خلطها لم يكن احتمال الفوز عليها بنسبة ٢ × ٣٢ أي ٦٤، بل كان الاحتمال ٣٢ × ٣٢ = ١٠٢٤. فإذا أردنا أن نسحب تلك الورقة بعينها من بين أوراق يبلغ عددها ٥٤ بضم ٢٠ ورقات من جنس آخر، كان احتمال الوصول إلى تلك الورقة ١٠٢٤ × ٥٤ أي واحدا في ٦٥ ألفا وهلم جرا[١٧].

فإذا فرضنا وجود خمسة وعشرين كوكباً شبيهة بمجموعتنا الشمسية، وقريبة منها من حيث القدم، في مجرتنا المحتوية على المليارات من الكواكب، وصرفنا النظر عن سيارتها الصغيرة، وقبلنا أن احتمال هذا النظام الموجود بين كل منها هو بنسبة واحد في تريليون، كان هذا الاحتمال لخمسة وعشرين كوكباً ١ ÷ (١٢×٢٥) = ١ ÷ ٣٠٠ أي أن المقام في هذه النسبة يحتوي ٣٠٠ مرتبة، ومدلول هذا الرقم لا يتصور في الخيال [١٨]، فإذا كان هناك مليوناً من الكواكب التي لها سيارات

كمجموعتنا الشمسية، كان المقام في هذه النسبة مكونا من اثنى عشر مليوناً من المراتب، وهذا ما لم يمكن تصوره وتصويره بأي حال.

ولما كانت قبة السماء تتجلى أمام أبصارنا بعظمتها وهيبتها، فإنا قد نكشف شيئاً من أسرارها بما يتعلق به علمنا من بعض قوانينها، ونقف على نكت كهذه محيرة للعقول. بيد أن أمثال هذه النكت الدقيقة تتجلى حتى في أحقر الموجودات. ولا مشاحة أن دقائق الخلقة المتجلية في عالم الروحيات والحيويات، أعلى بكثير من كل ذلك. وقد بينا في إحدى حواشينا السالفة كيفية تشكل ذرات الأجسام وقطر البروتونات في أتوم الإيدروجين ودور إلكترون، حاملاً لكهيربية سلبية حول هذا البروتون المحتوى على الكهربية الإيجابية، وقطر بروتون الذهب أكبر من هذا بثمان عشرة مرة، ويدور حوله خمسة عشر إلكتروناً. ومع هذا قطر أتوم الذهب مع إلكتروناته يعادل عشرة آلاف أمثال قطر البروتون[١٩]، (ولا ينبغي أن يظن أن الأتوم مع توابعه شيء كبير، بل هو ثلاثة من عشرة مليارات من المتر). ونسبة القطر الوسطى لمدار السيار الأخير في المجموعة الشمسية وهو نبتون، يكاد أن يكون على هذا القدر بالنسبة لقطر الشمس [فقد كشف أخيراً سيار آخر أبعد من نبتون].

يظهر من ذلك أن بعض هذه الأتومات الصغيرة بدرجة خارجة عن حدود التصور- لها توابع متعددة كتوابع المشترى، ولبعضها إلكترون واحد كالقمر للأرض. إذن فالأشكال والتركيبات التي نراها كلما تقدمنا

نحو أعظم محسوساتنا، واقعة كذلك في أصغر ما تعلق به علمنا. «فاذهب وقس ما هو بحر الخليقة!».

وكذلك فإن القوة المكنوزة في هذه الأتومات عظيمة إلى درجة لا يتصورها العقل، كما دلت على ذلك الكشوف والحسابات الأخيرة، ويقول الأستاذ الحكيم جُسْتاف لوبون في كتابه «تطور القوة»: إن القوة المكنوزة في جرام واحد من المادة يعادل «٥١٠» بيليون من الكيلوجرامترات [والكيلوجرامتر: هو القوة الفعالة الكافية لرفع الكيلو جرام من الثقل إلى متر] أي أن تلك القوة تعادل قدرة سبعة بلايين حصان بخاري [وكل حصان بخاري يعادل ٧٥ كيلو جرامتر]. وقد حسب الحكيم الرياضي الفرنسي «بكرل» في كتابه عن نظرية «آينشتين» أن القوة التي تستخرج من تحطيم جرام من أتومات المادة يمكنها أن ترفع ثلاثين مليوناً من الأطنان (الطن يساوي ألف كيلو جرام) إلى ذروة برج إيفل [ارتفاعه ٣٠٠ متر]، وهذا يعادل ٩ تريليونات كيلو جرامتر، أي «١٢٠» بيليون من الحُصن البخارية، وهذه القوة لا تصل إليها جميع البواخر والآلات البخارية الموجودة في الدنيا كلها. وهذه المقادير- بالرغم من الاختلافات- ليست فرضيات شخصية، بل هي مستندة إلى تجارب وحسابات دقيقة.

أوَليس في ظهور الأجزاء المادية متوازنة هادئة دون تعديل ماهية- آثار باهرة لحكمة بالغة كفيلة بنظام المجموعة الشمسية؟ في حين أنه كان من

المحتملات الطبيعية حدوث اضطرابات ومصادمات متقابلة بين الكُهيربات الدائرة بسرعة كسرعة الضوء وبين كهيربات الأتوم!

ولا يقف الأمر عند ذلك؛ فإن اتحاد أتومات الإيدروجين بمقادير مختلفة في صورة قويمة يؤدي إلى حدوث أتومات أجسام بسيطة يتجاوز عدها التسعين، وتتألف ذرات الأجسام البسيطة باتحاد بضع أتومات من نوع واحد، وذرات الأجسام المركبة بامتزاج أتومات من أنواع مختلفة، وينشأ من ذلك مواد مركبة معدنية وعضوية لا يحصرها العد. ومع أنها جميعاً من عنصر واحد في الأصل، وهو الإيدروجين فلكل منها خواص تختلف عن خواص الأخرى. والأجسام البسيطة وإن كانت تتجزأ من نفسها، فإن علم الإنسان وقدرته لم يجدا سبيلاً إلى تحليلها إلى الآن. وأما الأجسام المركبة فإنها عند تحليلها في دائرة القوانين المعلومة يضيع مقدار ضئيل من أجزائها الأصلية، وتعود إلى حالها الأولى، وتواظب كهيرباتها على الدوران حول مداراتها القديمة. وإذا ما تكهرب الجسم تفترق أكثر الكهيربات من الأتوم الذي تنتمي إليه، وتتجمع حول القطب السلبي، فإذا زال السبب الداعي للتكهرب تعود الكهيربات وتأخذ الأتومات شكلها الأصلي. وبوقوع الحوادث الكهيربية بصور أخرى، يزول قسم من الكهيربات، وتتحول الأتومات لتكون ما يقال له «إيون»، وهنالك تحصل تيارات وأشعة متنوعة.

فهل يمكن إذن أن يحمل على الصدفة استقرار الأتومات على حالها الأصلي بتغير قليل بعد هذا الامتزاج والتركب والتكهرب، وتأديتها إلى

حوادث صالحة للخلقة، وتطورها وتزينها؟ أجل، هل يمكن حمل ذلك على تصادف أعمى؟! إذن فأصغر أتوم آية باهرة كالنظام الشمسي من آيات القدرة الإلهية، والحكمة السبحانية. وكل ما في الكون من أصغر أتوم إلى أكبر شمس شاهد عادل، وبرهان قاطع على وجود الباري تعالى. وكأن كل أتوم كصفر على يمين مقام النسبة التي وضعها لاپلاس لإثبات واجب الوجود بلسان الرياضة، وتمجيده بها. (يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم). صدق الله العظيم.

وفي كل شيء لَهُ آيةٌ تَدلُّ على أنَّهُ الوَاحِدُ

***

إني لأرجو العفو من قرائي لشغلهم ببعض الأرقام الموهومة. إنما أردت بهذه الصورة إثبات أن إنكار وجود الخالق المتعال ليس بعلم وعرفان، بل هو جهل محض، وعمى بصيرة ووجدان، وإعطاء علم إجمالي بأسرار الخليقة ودقائقها، لمن لم يدرس من القراء الكرام العلوم الحكمية.

ثم إن لهذا الحساب الاحتمالي موقعاً عظيماً في حياة البشر. فإن ناپليون كان يقول إنه إذا رأى للظفر احتمالين من ثلاثة احتمالات، عزم على الهجوم في الحال. [وعلى هذا يجوز أن يقال إنه «حرصاً وغروراً» لم يُراع هذا الاحتمال في محاربة الروس سنة ١٨١٢ وحملة لاروتير سنة ١٨١٤ فمنى بهزيمة]. وكثير من التجار والماليين إذا رأوا للربح احتماليين

ولمقابله احتمالاً واحداً، فإنهم يخاطرون ببعض ثرواتهم، وإذا تحقق عشرة احتمالات في مقابله احتمال واحد، فإن أشد المترددين والمتحرزين من الناس، بل أهل التقوى منهم، يخاطرون بما ملكت أيديهم في المخاطرات. والتجارة مبنية على الحساب الاحتمالي. فشركات التأمين وبعض كبار محال القمار مثل موناكو- مؤسسة على احتمال الربح بعشرين أو ثلاثين في المئة، إن خسروا أحياناً فإنهم ينتهون إلى الثقة الكبيرة؛ وبهذا السبب تدوم هذه المؤسسات النافعة والضارة. والذين يختارون احتمال القليل طمعاً في الربح الزائد، يخسرون آخراً، ويشتهرون بين الناس بالتبذير وسوء الأخلاق.

وهكذا الحال في الأمور الاعتقادية. فالذي يتعامى عن الاحتمال القوي، الذي هو قوي فوق ما يتصور، ويبنى سعادة نفسه وقومه الأخروية على الاحتمال الأضعف، فهو منكر تبعاً لهواه، وميلاً إلى المنافع والشهوات الدينوية، فهو سفيه كل السفه، كما هو جاهل ضرير، وتعذيبه في الآخرة لا يكون منافياً للعدالة.

في السطور المتقدمة قد ذكرت الأجرام والأجزاء على الانفراد، ولكن لو نُظِر بنظر الإمعان إلى جميع الأجسام المتولدة من امتزاج أجزاء الكائنات بعضها ببعض، ومن اتحادها وتركبها وانحلالها وتصادمها، وتموجها واهتزازاتها، وإلى آثارها، وإلى مناسبات الحوادث بعضها مع بعض وعلاقتها، وإلى نظامها وانتظامها المتكفل ببقاء مملكة الخليقة وتطورها، صار مخرج نسبة «لابلاس» غير متناه- فليقل المتعصبون من

الرياضيين ما شاءوا- فبناءً على هذا يتحقق بصورة قاطعة وجوب وجود مؤثر مدبر حكيم قادر مطلق، فيما وراء الحجاب.

اعتراض الماديين

لكن على خلاف هذه البداهة العلمية يدعى المنكرون «أن القوة والمادة، أو الأثير الذي [٢٠] تكتسبان منه الوجود أزلي، وأن المادة والقوة تدخلان في أوضاع وتركبات لا يحصرها الحد منذ الأزل مصادفة، وهذه الأشكال والتركبات تظل مدة طويلة لا تشبه شيئاً، ثم تتصادم مع غيرها فتتبدد، ثم تتجمع! بيد أنه قد تتولد خلال الأوضاع والتركبات المحتملة التي لا يحصرها عد- بعض علاقات ندعوها قانوناً طبيعياً، وكلما حصلت تلك القوانين تطورت الأشكال بتأثيرها، وبلغت حالة مستقرة. وعلى هذا النحو تظهر الموجودات والحادثات في العالم».

إن ما أوردنا من الأدلة والحسابات فيما سبق، لا يدع مجالاً لأن يقنع أحد من أصحاب العقل والفهم بمثل هذا الادعاء، بيد أنه يصعب نقضه بإثبات عكسه. والحق أن قوة السفسطة الوحيدة هي في استنادها إلى المسائل التي يصعب استقصاؤها. ويعرف العالمون بمقدمات العلوم أن كثيراً من البديهيات يصعب إثباتها وتعريفها بالمنطق واللسان، ولكن يعتقد الوجدان صحتها. وكذلك يصعب إبطال السفسطة التي يظهر بطلانها تمام الظهور، ويشمئز منها العقل السليم والطبع السليم، بيد أني سأستعين بمثال أورده «الأب مورو» من كملة أهل العلم، في الرد على هذه السفسطة [٢١]: لنفرض أن عددا من الآلات الموسيقية مطروحة على

الأرض، كما اتفق، تترنم بذاتها دون أن يكون لها موقع ومدير، بمقامات موسيقى الفارابي أو سَزائي دده أو بتهوفن أو جونو، من الألحان اللطيفة المؤثرة، وتترنم من حين إلى حين بأصوات الجازباند الحديثة المزعجة، هل يقبل العقل أن تصدر هذه النغمات بمجرد هبوب النسيم دون أن يكون هناك ترتيب مستتر، أو منظم ماهر؟! لا جرم أنه لا يقبل أحد مثل ذلك الادعاء الباطل. فإذا كان الأمر كذلك مع هذه الآلات الموسيقية، فهل ترى هذه الآلات التي لا يتجاوز عدها العشرات، أعظم خطراً وأجل أمراً من مملكة الخليقة المملوءة بما لا يُحصى من أجناس المخلوقات، وأنواع الموجودات، وما يلازمها من الحركات والسكنات، والاهتزازات والمناسبات والمصادمات والأفكار والمكالمات، حتى يُحمل أمرها على التصادف؟!

إن صدق قضية من القضايا يتبين بقبول العقل والوجدان، وبموافقتها للطبيعة والفطرة، وإلا كانت سفسطة.

ظهور ذوي الأرواح في الكواكب

أما ظهور ذوي الأرواح على الكرات، فهذه المسألة لا تجد دعوى المنكرين المستندة إلى الأزلية مجالاً للتطبيق هنا؛ أولاً: لأنه من المتفق عليه أن للكرات عمراً محدوداً. وثانياً: لأنه من المحقق أن الحالة النارية التي كانت عليها الأجرام في بداية نشأتها لم تكن قابلة للحياة الحيوانية والنباتية. وثالثاً: لأن أهل العلم كما ذكرنا فيما سلف- وإن لم يصلوا إلى حقيقة المادة- قد كشفوا أكثر أسرارها، وعلموا بكثير من دقائقها، ولكنهم

لم يجدوا في جميع الأجزاء المادية إلا حركة قسرية تابعة لبعض القوانين والخواص، ولم يجدوا فيها خاصة تدل على الآثار الحيوية، والتفكر والإرادة الذاتية، ولم يمكنهم خلق أي عضوية كانت مع ما تيسر لهم من أنواع التحليل والتركيب، وكل ما بينه الماديون على ما يتوهمونه من الاكتشافات التي ستقع في المستقبل مردود بالوجوه. ورابعاً: يعتبر أرباب العلم ولاسيما الدكتور پاستور المشهور- أن الحياة يمتنع ظهورها قبل أن تكون جرثومة، ولهذا يقولون «إن الحياة تلد الحياة»؛ إذن فظهور الحياة في العالم الجسماني يدل على احتياجها إلى واسطة لدنِّية غير مادية.

قد يقول المنكرون إزاء ذلك: «نعم إن الحياة لا تظهر من تلقاء نفسها في الوقت الحاضر- وهذا ثابت بالتجربة- إلا أن ذلك كان محتملاً قبل مئات الملايين من السنين، حينما كانت الأرض حاوية للعناصر الغنية الفياضة، وكان من الممكن أن تتولد الحياة بنفسها». لكن كيف يجوز لهؤلاء- الذي يعتمدون على العلم ولو ظاهراً، ويحتجون به في إنكارهم تكذيب نتائج التجارب العلمية، وإبطال دلائلها بمجرد الاعتماد على الاحتمالات؟! إنا نسأل جميع الحقوقيين، وكافة المناطقة، قائلين: «في أية محكمة يسمع مثل هذه القضايا التي تركت المجربات والمثبتات، وبنيت على المحتملات والممكنات؟».

من أجل ذلك يقول بعض العلماء الذين يحكمون ببطلان هذا الرأي: إن البروتوپلازم الحامل للحياة قد انفصل من الكرات التي كانت مسكونة من قبل، متعلقا بأهداب الغبار السماوي المنتشر في الجو، ووصل إلى

الأرض، ظل مدة طويلة طائراً في الجو، ثم نزل بتيار مساعد إلى سطح الماء، وهنالك أحدث أول جُرثومة تناسلت منها النباتات والحيوانات وتطورت [٢٢].

ونحن نقول بإزاء هذه الفروض: ألم تمر تلك الكُرات التي فرض كونها مسكونة قبل الأرض من الحالة النارية؟ وهل كانت المادة التي تركبت منها غير المادة الموجودة لدينا؟ إذا كان الأمر كذلك، كان مصدر الحياة عالماً غير العالم المادي الذي نعرفه. وإذا لم يكن الأمر كذلك، أي إذا كان الحال على نحو كرتنا، وجب أن تفاض فيها أول نفحة من نفحات الحياة من تلقاء نفسها، لا من عالم مادي بل من عالم لَدُنِّي، بواسطة قوة غيبية، وعلى كلا التقديرين يلزم الاعتراف بعالم غيبي، وقوة مدبرة معنوية، غير هذا العالم الذي ندركه.

وإذا ءامنا بوجود مسبب أول لحدوث العالم ودوامه، واعترفنا بأزليته وقدرته، وتحقق لنا بهذه الأدلة العلمية والمنطقية أن مملكة الخليقة مبنية على الحكمة، وجب علينا أن نصدق أن هذا المسبب متصف بكمال الحكمة. وإذن يثبت عقلاً وعلماً وجود خالق حكيم، عليم، مريد، على النحو الذي جاءت به الأديان.

يقول بعض المعترضين إن اجتماع الحكمة والقدرة وأمثالها من الصفات في المسبب الأول مُخِل بوحدته (والجهمية والمعتزلة ينكرون الصفات الإلهية من هذه الوجهة) ولكن هذا الذهاب باطل. فإن كون إنسان ما ذكياً وقوياً وجميلاً وكريماً، لا يستلزم أن يكون ذلك الإنسان

أربعة أشخاص. وكذلك الشمس؛ هي كبيرة وجاذبة وحارة ومنيرة ولكنها واحدة. وإذا ما تناولنا بروتون الإيدروجين ألفيناه أولاً صغيراً للغاية، وثانياً ألفيناه حائز القوة الكامنة الكبيرة، وثالثاً ألفيناه- كما يقال الآن- غير قابل للتجزئة. ورابعاً ألفيناه حائز الكهربية الإيجابية. فهل كون البروتون حائزاً لهذه الأحوال الأربع- مخل ببساطته؟ أو مؤدٍ لأن تكون له أربع هويات مختلفة؟ إن التعمق في الفلسفة ينبغي ألا يؤدي الإنسان إلى التفكير خارج مقتضيات الطبيعة الإنسانية، وتدل مشاهداتنا واعتياداتنا على أن اجتماع الصفات والأعراض لا يستلزم تعدد الذات.

***

بيد أن العقل البشري مع تصديقه هذه الحقائق قد يقول: نعم، لابد لكل مصنوع من صانع، ولكن لابد كذلك لكل أثر صنعة من مادة أولية. فالمهندس المعماري أو الميكانيكي لن يستطيع أن يوجد شيئاً ما لم يستمد من الطبيعة جميع ما يلزمه. إذن فما هي المادة الأولية للتكوين؟ ينبغي للإنسان أمام هذه الوسوسة أن يفكر ويقول: «إن جسمي ليس إلا أنموذجاً حقيراً بين أنواع المصنوعات الربانية، التي لا يحصيها العدّ، وعقلي الذي يفكر ولكن يعجز عن إدراك كنه ذاته، ليس إلا أثراً من آثار القدرة الفاطرة، وذرة من نور حكمتها التي تغشى الكائنات، ولا أتصور أن خير آلة مما أقدر على اختراعها بفضل تدبير العقل، وقوة أعضاء البدن، تستطيع أن تفهمني جد الفهم، وتستقصى ما ينطوي فيَّ من دقائق الصنعة. بيد أن كل شيء بالنسبة لغير المتناهى في حكم الصفر وفي حكم لا

شيء. وبما أن الآثار المحيرة للألباب، تدل على أن القدرة والحكمة الإلهية غير متناهية، أفلا يكون نصيبي من إدراك الخلقة في حكم الصفر؟ فكيف يجوز ويحق لي أن أدعي بأنني أستطيع أن أصل إلى أسرار خالقي وصانعي تمام الوصول؟ وكيف يمكنني أن أدرك مادة الكائنات وهذه المادة ليس فى طاقتنا إدراك ماهيتها. وإذا كان الإنسان يستطيع بقوة فنه استخدام الكهربا، وهي من لطائف الموجودات التي لا تصل إليها اليد، ولا تدركها الأبصار، واستكمال احتياجاته المادية، فهل يتصور أن يعجز خلاق الكائنات في أمر ما؟» فحينئذ يجد ما يزيل ارتيابه، وما يسكِّن اضطرابه [٢٣].

عقيدة الحكماء في الله

لقد أطلنا البحث بتفصيل نظريات لابلاس وحساباته. بيد أن هناك من الحكماء المعتقدين بالألوهية من هم في درجته إن لم يكونوا أعلى منه. وقد بحثنا عن أقوال «دكارت» و«هرشل» في هذا الموضوع فيما سلف. وكذلك كان «نيوتُن» وهو من أكبر الرياضيين والفلكيين وأشهرهم ومن المعتقدين بالله، بل كان من الزهاد المتقين. ومن المتواتر أن «داروين» الذي يُعد من مبدعي فلسفة التطور، كان يستشير أحد الرهبان الإنجليكان من أصحابه، قبل أن يقرر آراءه ونظرياته فيما يختص بتأليفها بالعقائد الدينية. ومن الثابت أن «پاستور» المشهور بوضعه علم البكتريولوجيا، وباكتشافاته النافعة وخدمته العظيمة للطب وغير ذلك، مما جعل الإنسانية مدينة له بالشكر- كان من المؤمنين بالله.

وهذا الفيلسوف سبنسر الذي أكمل نظرية التطور وإن لم يضعها، مع أنه لم يكن معدوداً من المتدينين- كان يعتقد أن للخليقة سراً مطلقاً لا نهائياً، وحيداً متعالياً عن الإدراك، وأن هذا السر الأعظم من شأنه أن يرسل من يعمل على إصلاح العالم. وهذا الحكيم- وقد جمعت مؤلفاته الفلسفية في عشر مجلدات- يقول في مبحثها الخاص بـ «ما لا يعرف» (Inconnaissable) عن إمكان التأليف بين الدين والعلم، ويقرر أننا مضطرون إلى الاعتراف بأن الحادثات مظاهر قدرة مطلقة متعالية عن الإدراك، وأن الأديان كانت أول من قبل هذه الحقيقة العلوية ولقنتها، ولكنها نُشرت في أول الأمر ممزوجة ببعض الأباطيل، ثم زادت هذه الأباطيل شيئاً فشيئاً، حتى وضعت العقائد الدينية على هذا النحو. ومن حيث إن العلم والدين يتحدان حول هذا الأساس المتين، أي الإقرار بهذه القدرة المطلقة التي لا تدرك، فمن الممكن إذن تأليف ذات بينهما. ولو أن هذا الفيلسوف أمكنه أن يستقصى الدين الإسلامي، وأن يعرف أن الإسلام يصف خلاق الكائنات بقوله: «كل ما خطر ببالك وهو هالك، فالله سوى ذلك» لأقر بأن الإسلام دين خالص في أساسه وصاف.

وتحدث هنري پوانكاري- وهو من أكبر الرياضيين من المتأخرين وأشهرهم- في مقاله عما يبذل الفلكيون من الجهود بلا انتظار نفع مادي أو تحقيق أمل دنيوي لما يتجشمونه من المشاق والمتاعب. ثم قال: «إن هذا السعي وهذه المشقة إنما هو خدمة لأثر عظيم وهذا يثير الروح، فيقر بها إلى خالقها»؛ كما قال في مقال آخر: «إن ما في هذا العالم انتظاماً

واتزاناً لا يمكن أن يُحمل على الصدفة». فهل تتضمن هذه الأقوال شيئاً غير الاعتراف بالخالق؟

وقد كتب كميل فلاماريون الذي توفى حديثاً في كتابه «الله في الطبيعة» ما ننقله على النحو الآتي: «إذا انتقلنا من ساحة المحسوسات إلى الروحيات، فإن الله يتجلى لنا بمفهوم روح دائم موجود في حقيقة كل شيء. ليس هو سلطاناً يحكم من فوق السماوات، بل هو نظام مستتر مهيمن على كافة الموجودات والحادثات، وليس هو مقيماً في جنة مكتظة بالصلحاء والملائكة، بل إن الفضاء اللانهائي مملوء به؛ فهو موجود مستقر في كل نقطة من الفضاء وفي كل لحظة من الزمان، وبتعبير أصح هو قيوم لا نهائي منزه عن الزمان والمكان والتسلسل والتعاقب ... ليس كلامي هذا من جملة عقائد ما بعد الطبيعة المشكوك في صحتها، بل من النتائج القاطعة التي استنبطت من تلك القواعد الثابتة للعلم كنسبية الحركة وقدم القوانين. إن النظام العام الحاكم في الطبيعة، وآثار الحكمة المشهورة في تكوين كل شيء، والحكمة البالغة المبسوطة المنتشرة كضياء الفجر والشفق في الهيئة العامة، لاسيما الوحدة التي تتجلى بقانون التطور الدائم- تدل على أن القدرة المطلقة الإلهية هي الحافظة المستترة للكون؛ هي النظام الحقيقي؛ هي المصدر الأصلي لكافة القوانين الطبيعية وأشكالها ومظاهرها».

لم يكن قائل هذه الأقوال متديناً، لأنه كان ينكر الموسوية والعيسوية ولا يعرف الإسلام، ولكن كان هو وأمثاله معتقدين بوحدانية الله، فكانوا

موحدين. أليس قول الحكيم «إن الفضاء اللانهائي مملوء به ... هو موجود مستقر في كل نقطة من الفضاء، وفي كل لحظة من الزمان» بتصديق، بألفاظ أُخَر، للرب الذي نؤمن به بنص القرآن أنه محيط بكل شيء، وأقرب إلينا من حبل الوريد، قديم ودائم؟ أوَليس رؤيته الحكمة في التكوين والوحدة في قانون الطبيعة واعترافُه بأن القدرة المطلقة الصمدانية هي المؤثرة والحافظة الحقيقية للموجودات- بإقرار وتسليم بالصفات الإلهية التي جاء بها الإسلام؟

ومما يستحق الذكر أنه يلاحظ في كلام فلاماريون أن الله تعالى حاضر بذاته في كل مكان، وهذا يوافق الفلسفة الوجودية، وفي الجملة عقيدة أهل التصوف، في حين أن علماء الإسلام الحقيقيين يرون أن كيفية الحضور والإحاطة تكون بعلم الله وقدرته، وأن الذات الإلهية فوق الإدراك على الإطلاق في كل خصوص، ولذلك يجتنبون تطويل الكلام في هذا الموضوع. والحق أن افتراض وجود الله في كل نقطة من الفضاء، قد يؤدي إلى التصور والاعتقاد بأن الهوية الربانية عبارة عن أثير أو قوة أو روح أو فكر، وهذا ليس من شأنه أن يوضح سر الخليقة، كما أنه يخالف الاعتقاد الأصلي الإسلامي الذي يقول: «ليس كمثله شيءٌ» و«لم يكن له كفواً أحد»، ويجعل ذات الله تعالى فوق القياس وفوق الإدراك على الإطلاق. والإسلام مع أنه يأمر بالإيمان بوجود الواجب وبصفاته السلبية والثبوتية، لا يدعي النفوذ في ذات الله وحقيقته.

وهناك غير ما ذكرنا بين الأسلاف والمعاصرين من الحكماء من يؤمن بالله وبوحدانيته؛ بحيث إذا نظر الإنسان إلى أقوال هؤلاء المدققين والمفكرين، وأمعن النظر في آرائهم، ثم نظر إلى من يتبرءون من دينهم بغير علم ولا درس، تبعاً لأهوائهم وانقياداً لما يسمونه «الموضة» فحسب- يحار حيرة عظيمة. وأنا لا أستشهد بأقوال حكماء الغرب إلا إلزاماً لهؤلاء ببراهين مشاهير المفكرين، الذين لا تربطهم بديننا أية رابطة، وبهذا تتضح حقِّية اعتقادنا، ويبين فضلها واضحاً جلياً «والفضل ما شهدت به الأعداء».

آراء الماديين في الله

قد يعترض المعارضون بأني أخص بالذكر أقوال الروحيين من العلماء، وأهمل الماديين. ولكني أرى- مع نقصان تدقيقاتي- أن أدلة الروحيين أقوى من أدلة غيرهم، وليس موضوع كتابي مقايسة الأفكار الفلسفية المتخالفة. ومع هذا فإني أزيد على ذلك أن أكثر الفلاسفة الماديين استفادوا من معاصريهم من الرياضيين والفلكيين والكيميائيين والطبيعيين في وضع نظرياتهم الإلحادية، في حين أن أصحاب هذه التجارب والاكتشافات كانوا مؤمنين بالمسبب الأول، وهؤلاء الذين ذكرت أسماءهم فيما سلف أكثرهم من المتبحرين في العلوم والفنون. ثم إن مقارنة هذه الآراء ومباحثتها أمر يترتب على أولئك الذين يتجردون مما توارثوه من الاعتقاد عن أجدادهم، قبل أن يتخذوا قرارهم النهائي. فهل فعل المنكرون الذين ظهروا بيننا ذلك؟! ومع هذا فإني أذكر وأناقش بعض

الماديين اجتناباً لسوء الظن بأنى ألتزم أحد الفريقين. ولكن تتبع جميع الآثار الفلسفية وتلخيصها أمر غير هين، ولهذا أكتفى بنقل ما يأتي من كتاب فلاماريون (الله في الطبيعة) مع بعض آرائي الشخصية. ولاشك أن هذا الحكيم الشهير لم يحرِّف أقوال المعارضين، ولم يسند إليهم ما هم منه براء.

يقول بوخنر Buchner عميد الماديين في العصر الماضي، في كتابه (القوة والمادة): «من الممكن إرجاع ظهور الأجرام السماوية وانتشارها وحركاتها إلى أصول بسيطة من الممكنات مادة فلا يبقى إذن محل للاعتقاد في قوة خالقة مشخصة»[٢٤]، في حين أنه لا يمكن استقصاء أي سر من أسرار الخلقة استقصاءً تاماً، وأصحاب أشهر النظريات الخاصة بخلقة العالم (Cosmogonie) يحملون تكوُّن العالم على سبب مجهول، أو على سر لا يُعلم، أو على قدرة مسبب مدرِك، ولم يذكر حكيم من الحكماء تلك الأصول البسيطة التي يبحث عنها بوخنر. حقاً إن هناك من القوانين المكتشفة ما يجله الماديون، ولكن يعترف مكتشفو هذه القوانين أن لها واضعاً حكيماً، ومن هؤلاء نيوتن وهرشل ولاپلاس وپوانكاري وفلاماريون وكم من أطواد علم الفلك والرياضة ومن أصحاب المذاهب والاكتشافات في تلك العلوم من يؤمنون بأن للعالم خالقاً.

أما بوخنر فيتعمد الإلحاد والإنكار قائلاً: «إن ما يُشاهَد من عدم الانتظام في العالم، وما يقع من القضاء والاضطراب فيه، يقوِّض دعائم

النظرية التي تستند إلى تأثير مؤثر تابع للقوانين، حتى لو كانت نتيجة الذكاء البشري»، في حين أن جميع أرباب العلم يقفون حائرين أمام دقة النظام الذي يرونه في الكائنات. ثم يقول ذلك الفيلسوف: «إذا أمكن حمل خلقة العوالم- أي الأماكن المقتضية للناس والحيوانات- إلى قوة مشخِّصة مفكرة، فينبغي استقصاء هذه النقطة: ما اللزوم للفضاء الخالي الوسيع الذي تسير فيه الشموس وتوابعها؟ وما السبب لكون السيارات الأخرى من مجموعتنا غير مسكونة (وهو ما لم يتحقق بعد).

إن بعض الماديين يرون في كون سرعة الضياء في الثانية ليست أكثر من ٣٠٠ ألف كيلو متر، وفي كون القمر ليس له حركة محورية ولذلك يقابل الأرض بوجه واحد- ما يدل على نقص الحكمة البالغة، ويتخذون ذلك وسيلة لإنكار سر الخلقة. وكل ذي ضمير يفهم ماهية هذه السفسطة التي تعادل في غرابتها الدعوى «بأن ليس هذا العالم على النحو الذي أريده، فلا خالق له» أليس قبول هذا الادعاء الغريب بلا أدنى تأمل- أغرب؟!

ثم يتصدى بوخنر لإثبات إلحاده قائلاً: «لا يمكن أن يفهم أحد أن الكائنات يديرها ذكاء سرمدي مع وجود قوانين ثابتة للطبيعة، لأنه لا يمكن تأليف هذا بذاك، وينبغي إما أن تسيطر تلك القوانين أو يسيطر ذلك العقل الأبدي». هل يدل وجود القوانين في مكان على وجود واضع وحافظ لتلك القوانين، أم يقتضي عدمه؟! يظهر أن الرجل يظن الخالق الكريم مَلكاً مستبداً من أمثال نيرون، ولذلك يتصدى لإنكاره أو لخلعه،

في حين أن الذين اكتشفوا قوانين الطبيعة من أمثال «كپلر» و«نيوتن» يؤمنون بواضع تلك القوانين بكل إجلال وتكريم.

إن المنكرين الذين كفروا بالله يصورون الطبيعة التي يريدون تأليهها كما يلي: فهي على قول فوخت: «القوانين الطبيعية وحشية وغير قابلة للانحناء، فهي لا تقر لا بالخلق ولا بالشفقة»، وعند فوبرباخ «لا تجيب الطبيعة دعوات الناس وتظلماتهم، وتردها كلها إلى أصحابها بلا رحمة». فليشاهد المحدثون من الأخلاقيين، الذين يحاولون إنكار وجود الله لإنذاره المنكرين والمشركين المجرمين بجزاء الآخرة، كيف يتصور الماديون معبودهم الطبيعة، وكيف يصورونها؟

ويمكن أن يُلخَص رأى الماديين في القوة على هذا النحو؛ يقول مولسكوت: «ليست القوة إلهاً محركاً ومهيجاً، أو وجوداً مستقلاً عن جوهر الأشياء المادية، بل خاصة مرتبطة بالمادة بأتم ارتباط في صورة دائمة (وقد سقطت هذه النظرية بعد التجارب الأخيرة)، والقوة التي لا تكون مرتبطة بالمادة، ليست إلا فكراً واهياً. فالآزوت والكربون (فحم) والإيدروجين والأكسجين والكبريت والفوسفور الداخلة في العضوية البشرية، مالكة لهذه الخاصة التي هي مرتبطة بها ارتباطاً أبدياً. وبناء عليه فالمادة حاكمة على الإنسان». وينبغي إزاء هذا الادعاء أن نسأل مولسكوت: بأية مادة يرتبط الضياء والحرارة والكهربا التي تصل من الشمس إلى الأرض، وتظهر تأثيراتها على الأرض، والتي ينبغي اعتبارها لذلك في حكم القوة؟

يقول بوخنر «إن الإنسان محصول المادة، وليست له خاصية فكرية على النحو الذي يصوره الروحيون». ويقول «بروسيه Praussais»: إن الإنسان عبارة عن الأعضاء البدنية، ومجموع فعاليتها، وليست النفس الناطقة، أي «أنا» شخصية مخصوصة، بل هي حال ونتيجة مشوشة لقوى متخالفة، يمكن أن تسند إلى أية كيفية أو قابلية من كيفيات المادة وقابليتها. والذكاء والحساسية عمل من أعمال الأجهزة العصبية، كما أن تحويل المأكولات إلى الكيلوس والدم من أعمال الأجهزة الهضمية والتنفسية. وما الروح إلا نظرية واهية، لا تستند إلى أية مشاهدة، ولا يمكن الاستدلال عليها بأي بحث وتحقيق، بل هي فكرة مجردة عارية عن كل معنى؛ والاعتقاد بأن في الإنسان شيئاً غير مجموع أعضائه عبث، كجميع أبحاث ما بعد الطبيعة». ويقول بوخنر: «ليس العقل والفكر والروح موجودات مستقلة، بل هي محصلة قوى متخالفة، أو هي محصول التأثير المشترك للمواد المختلفة، التي تحوى القوات والخواص العديدة». ويقول تيسو: «العقل قوة من قوى المادة ولكن ليست تلك القوة بسيطة، بل هي مجموع القوى البسيطة للمواد التي تتحد لتشكيل العضوية البشرية. وما دامت المادة لا تكون في الجسم البشري، فلن يبلغ العقل حالة حادثة، ولكن في المادة ميل طبيعي للدخول في هذه العضوية وتشكيل العقل».

أسألكم بالله، ما معنى هذه الكلمات؟! وإلى أي حساب أو تجربة يستند الذين يقولون هذا الكلام؟! وهل يصح الاعتماد على هذه الأقوال أكثر من

الاعتماد على حكايات ألف ليلة وليلة؟![٢٥] يقول بوخنر أيضا: «إن الكبد والكليتين تفرز مادة مرئية، دون أن نعلم نحن بذلك. وأما الحركة الدماغية فلن تكون خارج إرادتنا وإدراكنا. والدماغ يفرز قوة بدل المادة. ويجيب كميل فلاماريون قائلاً: «ما معنى إفراز القوة؟ ولماذا لا يفرز الدماغ كيلو مترات أو فراسخ؟» وأنا أزيد على ذلك فأقول: من حيث إنه لا روح ولا نفس ناطقة، فمن الذي يشعر بما تفرزه الحركة الدماغية؟! ومن الذي لا يشعر بها؟! وما معنى كلمة «نحن» التي يستعملها ذلك المتكلم؟! ويبدو أن الفيلسوف يقر مرغماً من قبيل إنطاق الحق بـ «أنا» الذي ينكرها وقد أنكرها سابقاً؟ ثم إنهم كانوا يقولون إن القوة لا تنفصل عن المادة، فأين مادة القوة التي يفرزها الدماغ؟

قال فلاماريون: إنه قرأ في جريدة طبية مقالة فيها: «الفكر: تركيب يشبه حمض فورميك، والتفكر تابع للفوسفور، والفضيلة والصداقة والشجاعة ما هي إلا تيارات كهربية للعضوية الإنسانية»، وقد سجل فلاماريون هذا الكلام في كتابه مستهزئاً. من الغريب أن البرهان الوحيد الذي يسرده الماديون لإثبات دعواهم هو قولهم: «كل فكر لا يمكن إثباته بالتجربة والحساب فهو مردود». ولكنهم لا يقولون لنا إلى أي حساب رياضي، وإلى أية تجربة علمية يستندون لإثبات تلك الآراء؟! لقد ذكرنا في مقدمة هذا الكتاب أن في النصرانية دستوراً يقول: «أومن به لأنه محال». والظاهر أن الذين يعتقدون تلك الأقوال يقولون: «نؤمن بها، لأننا لا نفهمها».

هذه أيها المنكرون أقوال زعمائكم وأدلتهم وسفسطة أساتذتكم التي تؤمنون بها، بلا إمعان في فكر ولا نظر، ولا تدقيق ولا مطالعة. إن ما يدعيه هؤلاء من أن دعواهم ونظرياتهم علمية ليس من الحقيقة في شيء. فليس من الممكن بالحساب والتجربة إثبات أن حدوث المجرات والشموس والكرات، واستمرار نظام الكائنات- مبنيٌّ على المصادفة، وأن فكر البشر وذكاءه ليسا إلا اهتزازات الأجزاء المادية وإفرازاتها. ولو كان الأمر كما زعموا لما كان فرق بين نظرياتهم وبين الاعتقاد بأن جوبيتر يسيطر على العالم من ذروة أوليمب. ثم إن نظرية مبنية على مجرد النفي والإنكار تثقل على الطبع والوجدان، وتخالف الشعور، بل إن مثل تلك العقيدة تدعو إلى اليأس، وتقوض دعائم الأخلاق.

لاشك في أنه لا يجوز الإيمان بآلهة تهوى الغانيات من النساء، وتبطش بالرقباء، أو تحكم على أولاد آدم بالبغض والخصومة آلافاً من السنين، بل ما دام التناسل على ظهر الأرضين، لتفاحة اقتطفها آدم دون رضا صاحبها، وغير ذلك من أنواع الآلهة. وأما الحي القيوم، القدير الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي لا تدركه الأبصار، فالإيمان به من مقتضيات الفطرة، وأمرٌ معقول علمي. فإن كون كل مصنوع له صانع، أمر لازم طبيعة، وحتمٌ عقلاً وعادة. وآثار الحكمة في الصنعة تدل على اتصاف الصانع بالعلم، كما أن عظمة الكون وفخامته تستلزم جلال صاحبه وكبرياءه.

بحث نظريات الإلحاديين

بعد أن ألقينا نظرة على أقوال الفلاسفة الماديين في القرن التاسع عشر، يقتضى أن نبحث نظريات الإلحاد التي يبنونها على أحدث الاكتشافات. واتخذ أساس بحثي في هذا الموضوع الدكتور جُشتاف لوبون، المعروف بأبحاثه وتجاربه في جميع شعب العلوم الطبيعية. وهذا الأستاذ يميل إلى الإثباتيين، ويستخف بالمذاهب الفلسفية القديمة، وحتى بالمادية العصرية، لأنه مفكر مستقل الرأي، وهو لهذا السبب يعتبر من العلماء المحايدين، غير المرتبطين برأي ثابت. ثم إنه لا يبدأ في نظرية التكوين- كأكثر الحكماء- من السحابيات وأكوام الشهب، بل من حدوث القوة وتشكل المادة.

تدل النظريات التي يبنيها جستاف لوبون على تجارب وتحقيقات كثيرة، ويحاول إثباتها بأقوى الأدلة في كثير من كتبه على «أن المادة والقوة تنشأان من الأثير، وتعودان إليه، وأن الأتومات تتولد من الزوابع السريعة الدوران، التي تحدث في داخل الأثير، وأن الأثير غير قابل للوزن، وغير مادي». وهذه الفرضية تستدعي الاعتراض الآتي قبل كل شيء وهو «إذا كان الأثير غير مادي، وغير قابل للوزن في صورة مطلقة، فإنه لا فرق بين استخراج مادة قابلة للوزن منه وبين إيجاد شيء من لا شيء».

والحق أنه ما دام الاستناد على العقل والعلم يلزم أن يقبل أن حاصل ضرب الصفر في عدد محدود يكون صفراً، وتكاثف الشيء غير الموزون يلزم ألا يؤدي إلى حصول وزن. فإن تجاهل العلماء- الذين يرفضون بل يستهزئون باعتقاد العلماء الإلهيين الذين يقولون: «إن الخالق خلق العالم من العدم»- الحقائق العقلية والمتعارفات الرياضية أمر جدُّ غريب. يقول العلماء الإلهيون: «إن الله تعالى خلق الكائنات بقدرته وحكمته التي تفوق إدراكنا» ولكنهم لا يزدرون البديهيات العقلية، والأحكام العلمية، بدعوى اكتشافهم سر الخليقة.

ويتصدى جستاف لوبون لإثبات كيفية تكاثف الأثير بسرعة الدوران، متمثلاً بما تكتسب الأجسام الخفيفة من الصلابة عندما تدور بسرعة عظيمة. حقاً إن كل كمية- مهما صغرت- تزداد قيمتها بتكبير مضروبها، أو بتكثير أمثالها، ولكن الصفر لا يكتسب قيمة إلا إذا ضرب في اللانهائي، في حين أن أهل العلم يقولون إنه ليس في الكون سرعة مادية أكبر من سرعة الضوء [٢٦]. وبناء عليه لا تكفى هذه الفرضيات لإثبات تكاثف الأثير غير القابل للوزن.

وللتخلص من هذا الاعتراض ينبغي تعيين مقدار ودرجة المادية والكثافة القليلة التي يمكن أن تكون موجودة في الأثير. إنه بناء على بعض الحسابات، لو كان الأثير ألطف من الهواء بتريليون مرة، لوجب أن يتبدد هواؤنا النسيمي، وأن تبلغ الحرارة عندنا وفي القمر ٣٨,٠٠٠ درجة بسبب ما يحدث من الاحتكاك بين هذين الجرمين وبين الأثير والمقاومة التي

تعمل عليهما. [وحرارة سطح الشمس عبارة عن ٥٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ درجة]. والحال أن هواءنا النسيمي باق منذ ملايين من السنين، وكرتنا الأرضية والقمرية عارية عن مثل تلك الحرارة الشديدة المحرقة. ثم إن جُستاف لوبون يقول: إن السحابة التي أحدثت مجموعة شمسنا ألطف من الهواء بسكستليون مرة [٢١](١٠) في حين أن للسحابيات كثافة، لأنها حاصلة من اختلاط الغازات المتشكلة من بروتونات كثيفة للغاية؛ ومن تصادم هذه السحابيات بعضها مع بعض أو مع أكوام الشهب يحدث الاختلال والحرارة العظيمة التي تحدث منها العوالم. أما الأثير فلا يقوم بمقاومة محسوسة في سير الأجرام السماوية. فبناء على هذه الحسابات والملاحظات لا تكون مبالغة إذا قيل إن نسبة كثافة الأثير للهواء هي [٣٠/١] ١٠. وبناء على هذه النظرية يحتاج لحصول كيلو جرام من الماء إلى حجم من الأثير أكبر من الشمس بعشرة آلاف مرة، وهو حجم أكبر من الأرض «١,٣٠٠,٠٠٠» مرة، مع أن كيلو جرام من الماء بالنسبة للأرض كمية حقيرة للغاية، لأن الناس الذي يعيشون على الأرض والحيوانات والبواخر والماكينات البخارية تستهلك كل يوم تريليونات من الكيلوجرام دون أن تشعر منابع المياه والأنهار والأبحار بشيء من جراء ذلك الاستهلاك. إذن فمن أين ينبع الأثير الذي يكفي لتشكيل كافة العوالم؟ ربما يقال تجاه ذلك «إن مسائل الخلقة المرتبطة بالأزلية واللانهائية، لا يصح البحث فيها عن المقدار والمقياس عدداً وبعداً وزماناً»، ولكن هذا القول لا يزيل الشبه، ولا يحل العُقد.

في الفيزيقا بديهة معروفة باسم واضعها، يقال لها قانون كَرْنو: لنفرض وجود حجرتين متجاورتين، درجة الحرارة في إحداهما ٣٠ وفي الأخرى ٢٠، فإذا وصلنا الحجرتين بفتح الباب الذي بينهما، سرت الحرارة من إحدى الحجرتين إلى الحجرة الباردة، فإن كانت الحجرتان متساويتين حجماً هبطت حرارة ٣٠ خمس درجات وارتفعت حرارة الأخرى من ٢٠ إلى ٢٥ درجة، وحدث التوازن بينهما على هذا النحو. ولكن لا يمكن أن تهبط حرارة إحدى الحجرتين من ٢٠ إلى ١٥ وأن تصعد حرارة الأخرى من ٣٠ إلى ٣٥، ومن حيث إن هذا المثال يمكن تطبيقه على جميع الحوادث، فقد وضع كرنو قانوناً عاماً وهو: «أن سير القوى يقع من الضغط (Tension) العالي إلى الضغط المنحط»، وهذا القانون من البديهيات كما اتضح من المثال السالف الذكر.

ومن حيث إنه لم يكن في الفضاء قبل ظهور الكائنات المادية شيء غير الأثير، وكان هذا الموجود لطيفاً للغاية ورا كداً وبارداً (درجة الحرارة فوق الطبقة النسيمية هي «-٢٧٣» تحت الصفر)، أفليس هذا الأمر يخالف القانون البديهي السالف الذكر، أن ينشأ في حضن هذا الأثير بروتونات أكثف (منفردة) من الهواء بكترليون مرة [١٨]١٠ وأكثف من الأثير على الأقل [٤٨]١٠ مرة، وظهور الكواكب النارية إلى آلاف من درجات الحرارة من تركب تلك البروتونات وامتزاجها؟

قد يسرد الحكيم المتفنن إزاء ذلك احتمالاً آخر إزالة للتناقض- أن القوانين التي كانت عند ظهور العالم واعتلائه قد تنعكس في عهد فساده

وانحطاطه، ولكن إذا أنكرت البديهيات العقلية والقوانين العلمية بناءً على الاحتمالات، لا يبقى مسند للمباحثة والمناظرة؛ وظاهر أن الحكيم المشار إليه تأمل ذلك بعين الإنصاف، إذ يقول في النهاية: إن تلك الزوابع قد حدثت بتأثير سبب غير معلوم، وقوة مجهولة. ونحن نوافقه على هذه الحقيقة.

نظرية الأتوم

وإذا قبلنا- بصرف النظر عن هذه الاعتراضات المحقة- أن أتومات الإيدروجين حدثت على ما يقول هذا الحكيم، وتتبعنا سلسلة التكون، رأينا أنه باتحاد بعض هذه الأتومات ينشأ أتومات الأجسام البسيطة (ويتفق متأخرو الحكماء على أن العناصر نشأت من امتزاج أتومات الإيدروجين في صورة يتعسر تحليلها حتى الآن)، وتبقى هذه الأتومات منفردة في بعض الأحيان، وتتحد أحياناً، فتشكل الذرة (المولكول)، ثم تنشأ الأجسام البسيطة من اتحاد ذرات من جنس واحد بتأثير الجاذبة والدافعة، تاركة بينها مسامّ كبيرة نسبة لجِرمها. وتنشأ الأجسام المركبة من امتزاج أتومات الأجسام البسيطة المختلفة في نسب مختلفة، وتنشأ المواد العضوية والأملاح وغيرها. وهذا الارتباط القويم بين أتومات الإيدروجين لتشكل العناصر، وامتزاج أتومات الأجسام البسيطة لحدوث الأجسام المركبة (ويمكن فكها وتحليلها بالأصول الكيميائية) وكل ذلك نتيجة توافق في ماهيات مختلفة، ولكن ما حقيقة هذه التوافقات؟ لو كانت نتيجة جاذبية بحتة للزم اتحاد الأتومات بمجرد ظهورها، ولزم أن تتشكل من كافة

الأجزاء كتلة واحدة ... فقوانين التوافق بين الأتومات ووقوع الامتزاج بينها في نسبة معينة- لا تزال مجهولة لدي الحكماء.

يُفهم بالتحليل الطيفي أن السحابيات حدثت من اختلاط غازات الإيدروجين والهليوم والنبوليوم، وأن بعض الكواكب والسيارات حدثت من انجذاب أجزاء السحابيات إلى مراكزها وتكاثفها، أو من تصادم السحابيات بعضها ببعض، أو بأكوام الشهب. ويشاهد أن كل مجموعة كوكب تحافظ على استقرارها بقوانين الجاذبية، ولكن ما أصل القوة الجاذبة التي تشكل الأجسام وتكثف السحابيات، وتثبت السيارات حول الشموس، والأقمار حول السيارات؟ وهذا أيضا مجهول!

تظهر النباتات والحيوانات بعدما تتكون السيارات وهبوطِ الحرارة إلى الاعتدال فوق سطحها. فما هي القوة النامية والحيوية التي فيها؟ يقول جُستاف لوبون مجيباً عن ذلك: «في الوقت الذي نعجز فيه عن إيضاح السبب في سقوط حجر، لا يجوز البحث في حوادث الحياة، فهذه مسألة ينبغي أن تترك لأهواء علماء ما بعد الطبيعة».

يظهر من كل ذلك أن العلم وإن كان قد اكتشف أشكال الأشياء وظواهرها وعلاقات بعضها ببعض، وبعض القوانين التي تخصها- إلا أنه لم ينفذ نظره في كنهها وحقيقتها ومنشئها ومبدئها، وأما الدين فإنه لا يعارض ما اكتشفه العلم عن المكونات والحادثات من أسباب ظاهرية، بيد أنه يرى فوق تلك الأسباب الظاهرية قوات غيبية مؤثرة تنتهي إلى «ذي القوة المتين». وإذن فالدين والعلم متحدان إلى حد ما في مسألة

التكوين، ولكن جستاف لوبون وبعض العلماء لا يرون هذه القوات المجهولة فوق الإدراك، ويدعون أنها سيمكن حلها وإدراكها، فلذلك يمتنعون عن الاعتقاد في مسبب الأسباب، ومن هنا ينشأ النزاع والجدال.

هؤلاء المنكرون يقولون: ليس الخالق إلا موجوداً موهوماً خلقه الناس في عقولهم، على نحو ما يفكرون. حاشا وكلا! وهم ينسون أن الإنسان لا يكاد يدرك نفسه، حتى يشعر بذلك الوجود بدافع وجداني فِطري، ويبحث عنه. وإذا ما استثنينا بعض الغافلين المعاندين ممن يحاربون ضمائرهم- رأينا الإنسانية بأجمعها متحدة في هذا الشعور. إنما يعجز العقل البشري عن إدراك ماهية هذا الوجود القدسي، وعن تصور حاله وشأنه- فتتملكه الحيرة، وينشأ من ذلك أنواع الخلاف.

فكيف إذن يستقصى حضرات الفلاسفة المنكرين أسرار الخلقة؟ وكيف يوضحونها؟ إن الأثير وهو مصدر الموجودات في نظرهم شيء غير مادي، وغير موزون، ثم إن له أساساً مادياً يصلح أن يكون قوام جميع المكونات! فهو من جهة لطيف إلى الغاية، ومن جهة أخرى صلب إلى الغاية. وله قوة وقابلية لنقل الجاذبية وأمواج الضياء والكهربا وما عداها من السيالات ذوات السرعة المختلفة المندفعة من كل الجهات بلا انقطاع، بيد أنه عاجز عن أدنى مقاومة لأصغر الأجرام المادية السماوية وأعظمها. هو نصف إله، جامع الأضداد، أبو العجب. وهذا هو الوهم والخيال بعينه. استعملت في شأنه تعبير نصف «إله» لأن هذا الشيء- الذي يُعتَبر مصدراً للعوالم- محتاج إلى قوة مجهولة من الخارج لتحركه،

ثم إن تجسم ما يصدر عنه واستقراره، محمول على المصادفة لا على إرادته!

إن فكر البشر يقبل ويدرك كون الشيء فوق الإدراك، لأن الإنسان يجد حوله مالا يدركه حالاً ومستقبلاً، فهو يعترف بضميره وبدلالة شعوره وتجربته، وما مر عليه من الحوادث- بوجود أشياء خارجة عن إدراكه. فهل الإيمان بقدرة فاطرة فوق الإدراك أوفق للفطرة أو تخيل مجموعة من الأضداد وافتراضها سر الخليقة؟!

ومع هذا، فإني لست من الذين يرون وجود الأثير وظهور العوالم منه خارج الإمكان. ولكني أرى فيه لاهوتية حتى تكون لها هذه الخواص، وحتى أراه كصورة مبسوطة ومنتشرة للقدرة السبحانية، لأن الأعراض والأوضاع التي تسند إليه فيها من التضاد والتناقض ما يخالف تعقلنا الفطري، وما يغاير أحكام علومنا اليقينية. ومن حيث إن إدراك البشر لا يسع مثل ذلك الوجود الجامع للأضداد، فمن الضروري اعتباره لاهوتياً، وفوق الإدراك، حتى لا يظن أنه عبث.

ثم إن العقل لا يقبل إمكان ادعاء الكشف علماً عن كنه السبب الذي حرك الأثير منذ زمن طويل لا يحيط به التصور. ولكن الأمر كما ذكرنا فيما سلف، أن المدعيات المجردة يصعب جرحها عقلاً ومنطقاً، لعدم استنادها إلى سبب معقول، فأمرها إلى العقل والطبع السليم، يقبلانها أو يردانها.

إن «جستاف لوبون» لا يكتفي في أمر التكوين باعتقاد ديني بسيط، ويؤمل إمكان كشف المجهولات جميعها يوماً ما، ولذلك يشجع الناس على تحري الحقيقة، مشيراً إلى أن في ذلك فوائد عظيمة، كتوسيع العلوم والفنون والتعمق فيها ولكن هل من دين يؤمن بالخالق، يمنع معتنقيه من تحري الحقيقة وتوسيع نطاق المعلومات؟ لا توجد أمثال هذه الأحكام في مذهب من المذاهب، ولا سيما الإسلام، فإنه يدعو إلى الاستدلال في الإيمان، ويحفز الأمة إلى اكتساب العلم والعرفان، بكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

وهناك جماعة من الفلاسفة ومنهم «سبنسر» السالف الذكر، يعتقدون في سر غير مُدرك، ترجع وتنتهي إليه جميع الأسباب والقوات العاملة في تكون العوالم، ويبجلون ذلك السر كلما مر ذكره. ويُرى هذا الرأي قريباً من الاعتقاد الإسلامي في أول الأمر. إلا أن هؤلاء الفلاسفة يقعون في الإفراط والمبالغة في مفهوم «فوق الإدراك»، فيقولون بأن إدراكهم لا يتسع للصفات الإلهية التي تؤمن بها الأديان، فينكرونها! ولكني لا أدري لماذا لا يقبلون ما تؤمن به الأديان من الصفات، في حين أنهم ينعتون ذلك السر الأعظم بأنه فوق الإدراك، وبأنه المطلق، والوحيد؛ أي أنهم يسندون إليه الصفات. والصفات التي يؤمن بها دين الإسلام في الخالق المتعالي عن إحاطة العقول، هي صفات يلزم من فقدانها وجود أضدادها[٢٧]، فإذا كان الشيء غير أزلي وأبدي كان حادثاً وفانياً. وإذا لم يكن قوياً وقادراً كان ضعيفاً وعاجزاً؛ وإذا لم يكن حياً وعالماً كان ميتاً

وجاهلاً. فهل السر الذي يعتقده الفلاسفة كذلك؟ وإذا لم يكن كذلك فليكن لهم وحدهم [٢٨].

يُستنتج من هذه البيانات والملاحظات، أن المنصفين من الحكماء الطبيعيين يقبلون ويسلمون بتأثير بعض قوى خفية في الأصل والأساس، مع تأثيرات الزمان في أمر تطور أنواع المكونات أو انحطاطها، وليس بين هذا الرأي وبين التعاليم الدينية خلاف. والدين الإسلامي مع أنه يخبر بأن بعض القوات الخفية الإلهية عاملة في أمر الخلقة، فإنه لا ينكر أبداً تأثير الزمان في الانقلابات الكونية.

لكن بعضاً من هؤلاء الحكماء كما ذكرنا آنفاً، وعلى رأسهم الدكتور جستاف لوبون- يؤملون اكتشاف هذه القوات المجهولة وحقائق الأشياء يوماً من الأيام. وبعضهم- وينبغي ذكر سبنسر على رأسهم- يرون في أمر الخلقة سراً لا يُعلم، ولا يمكن أن يحيط به الإدراك. ولو استطاع العلم اكتشاف مسألة واحدة تتعلق بأصل الأشياء وماهيتها لصح عقد الأمل على نحو ما يأمل الدكتور جُستاف لوبون. ولكن ما فعله العلم إلى اليوم، هو عبارة عن إيضاح الحوادث والحركات والسكنات- مستنداً إلى الأسس التي وضعها وافترضها الحكماء من تلقاء أنفسهم- دون أن ينفُذ في كنه شيء أو في ماهية قوة. لا شك أن العلم قد ارتقى ارتقاءً عظيماً في زماننا، واكتشف كثيراً من الأشياء، بيد أن كل ذلك خاص بالأشكال والحادثات، ولكنه لم يقترب بتاتاً من المسائل المتعلقة بالأصل والجوهر؛ فلا حق له في أن يدعي قائلاً: «قد اكتشفنا هذا السر أو ذلك»، وسنكشف غيره وغيره

حتى نصل إلى أصل الأصول في آخر الأمر، فالأصوب والأوفق للعقل الفكرة القائلة إن في أمر الخلقة سراً عالياً يعجز الفكر والذكاء البشري عن الإحاطة به.

وإذا ما قُبل وجود القوات المجهولة، فليس مما يغاير العلم قبول القوة المنظمة (Force régulatrice) التي توحد وتنظم ما بها من التأثيرات المنفردة والمتفرقة في هدف واحد، أي في تكون هذا العالم واستقراره وتطوره.

والعلم الذي يرى حاجة إلى مثل هذه القوة المنظمة والمصورة في الحياة الحيوانية، إنما يعترف بعجزه عن الوصول إلى حقيقتها [٢٩]. ولا ندري كيف يُستغنى عن مثل هذه القوة العالية في أمر تكوُّن العالم. بل إنه ليس هناك مانع علمي من الاعتراف بمثل هذه القوة الفاطرة التي ينبغي أن تكون مسيطرة على سائر القوى، وأن تكون سبباً أصلياً لها.

ثم إن العلم يعلم أن كل نطفة حاملة حمولة خصائص الجِبِلة، والحمولة محتوية على لب الأوصاف التي سيحملها كل ذي روح ينشأ منها. إذن، فبأى حمق يجوز الإدعاء بأن القوة والعلة الأصلية للتكوين تكون محرومة الحياة المنبثة في المكونات وما لها من الأوصاف؟! وإذا تقوض هذا الادعاء لم يبق في يد المنكرين سند لإنكار الصفات التي ترشد إليها الأديان عن خالق المكونات جلّ شأنه [٣٠].

ومن تأمل هذه الملاحظات بروح الإنصاف، يعترف بأن ليس بين العلم والدين- وخاصة الدين الإسلامي- خلاف أساسي في أمر التكوين.

***

إنه مما يتخذ وسيلة للتعريض بالدين عبادة الله والخوف منه. وإذا كان الشعر البديع، والتأليف النفيس، والتصوير الجميل، والتمثال الرائع، والاختراع النافع، والاكتشاف المهم، والمنقبة الحماسية، والخدمة الوطنية، تلقى في قلوب الناس احتراماً ومحبة لفاعلها، فكيف يعتبر من العبث تقديس الإنسان خالق العوالم وحافظها، والمنعم على نفسه؟! وقلب الإنسان يفعم شكراً وثناءً لمن يحسن إليه بأقل جميل، فكيف لا يحمدون من وهب لهم نعمة الحياة بالدعاء والعبادة؟! والناس يجتنبون ارتكاب المناهي والفواحش والقبائح خشية من الحكومة والمحكمة، فكيف لا يخافون أحكم الحاكمين وعالم الغيب والشهادة. وما هو الحظ في إنكار مثل هذه الأحكام والعقائد الدينية المكنونة تحتها الفوائد الاجتماعية والاستهزاء بها؟! وما السبب والضرورة لإنكارها؟! لا أفهم ذلك!

ثم إن الطبيعيين يقولون كما ذكرت آنفاً: إن العلم والفلسفة واجبهما الفحص عن أسرار الطبيعة بالأبحاث العقلية، والتجارب العلمية والعملية، فينبغي لهم أن يجتنبوا ويتباعدوا عن التفسيرات البسيطة المستندة إلى ما بعد الطبيعة، وإلى النظريات المتعالية عن الإدراك؛ أي العقائد الدينية. وإن كان قولهم هذا خاصاً بهم، مقصوراً على أنفسهم ومساعيهم فلنسكت

عنهم. وأما الأمر الذي لا يرون الاشتغال به لازماً فبيان الرأي والنقد فيه مغاير للمنطق والإنصاف. وعلى هذا يكون السعي إلى إبطال العقائد المقدسة التي قد أدت وظيفة منهاج السلامة منذ آلاف السنين، بالهجوم على الأسس الدينية، والإخلال بالقواعد الأخلاقية في ضمنها، وإفساد الشبان وإضلالهم في النتيجة- ظلماً عظيماً وإثماً كبيراً على القائلين به، ولا سيما جُستاف لوبون، فإنه ليس من منكري الحقيقة التاريخية، وهي أن «المدنية قد نشأت من الدين».

الماديون عندنا

والآن يجدر بنا أن نتكلم قليلاً عن الفلاسفة الماديين الذين نشئوا بيننا: عرفت في الأيام الأخيرة رجلاً معروفاً بين جماعة المثقفين. وانتقل الحديث بيننا إلى موضوع توارث خصائص الجبلة، أو النزوع الجبلي (أنا أستعمل هذا التعبير مقابل Atavisme وهو توارث الأبناء والأحفاد للخواص المعنوية من الآباء والأجداد) وكان مني أن أوردت كلمة لكميل فلاماريون عن الروح، فاستغرب هذا المثقف كلامي، وقال: وهل للروح وجود؟! ولم يكتف بهذا، بل زاد الطين بلة بأن استأنف حديثه قائلا: «يتكلمون عن الروح، ويبحثون عن الخالق، دون أن يفكروا في أن هذه العوالم وهذه الدنيا التي نعيش فيها أزلية، ولا محل للبحث عن خالق لها». ويُستدل من هذه الكلمات على أنه يجهل علم الهيئة، وأن اشتغاله بعلم طبقات الأرض ناقص سطحي، كاشتغاله بالفسلفة؛ إذ لو كان له بعض المعلومات الابتدائية لعلم أن للشموس وتوابعها عمراً محدوداً،

وأن من الشموس ما هي في سن الشباب، وما هي في سن متوسطة، وما هي طاعنة في السن كشمسنا، وأن في مجموعتنا الشمسية أجراماً على أحوال مختلفة ما بين نارية (كالشمس) وقريرة (كالقمر وأمثاله)، ولعلم بما مر على قشرة الأرض من الأدوار، ولعلم أيضا أن كلَّ معرَّض للتحول حادثٌ وفان، ثم إنه لو تتبع رقي العلم لعَلم أن أحدث النظريات تقول على خلاف الاعتقاد السائد إلى وقت قريب: إن المادة لابد فانية زائلة. فلما أشرت إلى ذلك انتقل بالبحث بكل لباقة إلى موضوع التوارث، وعندئذ سألته عن الشيء الذي تنتقل به الخصائص من الأجداد إلى الأحفاد، بطناً بعد بطن، لأننا إذا اعتبرنا الهوية الإنسانية عبارة عن المادة، فجميع الذرات والأتومات التي في البنية الحيوانية تنحل وتتبدل في مدة قصيرة، فاعترف بالعجز، مع أنه كان من الممكن أن يجيب بجواب ما، غير أنه صرح بأن رأيه في عدم وجود الروح لم يتزعزع مطلقاً! وأما عن الخالق جل شأنه فقد قال: بما أنه لا يمكن إثباته علمياً فلا يدعي عدمه، ولا يصدق وجوده. وعبر عن رأيه هذا بكل غرور! وقد كان هذا الرجل من المدرسين!

إنه ليتضح من أقوال هؤلاء الناس أن ليست لهم فكرة صحيحة شاملة في العلم والإثبات العلمي والتجريبي، فإن العلوم الرياضية تثبت دعاويها بالحساب، والعلوم الحكمية يبرهن على أحكامها بالتجارب، وثمة أيضاً علوم اجتماعية تتقرر مباحثها وأحكامها وقواعدها بالدراسات التاريخية، والمشاهدات اليومية، والقياسات والاستدلالات والمباحثات النظرية، بل

بالسنوحات الوجدانية. والمباحث الاعتقادية داخلة في الصنف الأخير؛ أي في العلوم الاجتماعية. ولكن هؤلاء المثقفين لا يريدون أن يحملوا أنفسهم مشقة إثبات دعاويهم الواهية بالاستدلال العقلي في إثبات الخالق والروح، بل يريدون إثباتهما بالتجارب التي تقع في المعامل العلمية. ويالها من مغالطة عمياء وضلال مبين!

وكنا نتباحث مرة مع رجل مُدَّع للعلم، فانتقل بيننا الكلام من قول الفيلسوف دكارت: «إني أفكر فأنا موجود»، إلى بحث الفكر والروح، فقال لي الرجل: «مادام الدماغ موجوداً في الرأس بكمال عظمته، أفليس من العبث الانقياد لأمثال هذه الأوهام؟ ولم نطلب في الظلمات الشيء الموجود في رأسنا وأمام أعيننا؟» فأجبته عن ذلك قائلاً: «أمرادكم من الدماغ المخ المادي الذي نتغذى نحن بما يخص الحيوانات، ويتغذى بعض الوحشيين في أفريقية أو أوستراليا بما يخصنا منه؟» فقال: «نعم، إن الفكر والعقل مكنوزان في حُجيرات الدماغ، ومنقوشان في تلافيفه»، فطلبت منه الدليل، فخاطبني كأنما يقرر لي درساً في التشريح قائلاً: «إن للدماغ ارتباطاً بكافة أعضاء البدن وكل نقطة منه، وإن التأثر الذي يحدث في أي عضو من أعضاء البدن من جراء تأثير خارجي- ينتقل إليه بإحساس الحاسة، ثم ينقل الإرادة الحاصلة بهذا السبب إلى الأعضاء، فإذا طرأ مرض أو انقطاع على الحجيرات الدماغية التي تمثل الحواس الإنسانية، أو الأعصاب والأوردة التي تربطها بأعضاء البدن، اختلت الملكة أو الحاسة التي تمثلها اختلالاً مؤقتاً أو دائماً». وقد كنت أعلم

بكل ذلك بتفصيلاته ودقائقه. بيد أننا لو صرفنا النظر عما اكتشفه العلماء من الدقائق، وما صادفوه من أسرار الخلقة فيما يختص بمسائل الحس والإدراك والإرادة، وقبلنا هذه الكلمات بكامل بساطتها- فهل يكون ذلك برهانا على أن الحقيقة الحيوانية والشخصية البشرية عبارة عن قطعة اللحم التي نسميها الدماغ؟!

إذا نظرنا إلى جهاز تلغرافي رأينا اللاقطة والمرسلة مرتبطتين بأسلاك إلى البطارية الكهربية والخطوط التلغرافية، وتستمد أسلاك الارتباط قوتها من البطارية، فتتلقى الأخبار من الخارج أو ترسلها إليه، فإذا انقطع أحد تلك الأسلاك أو انكسر أحد المسامير التي تربط تلك الأسلاك بالجهاز فلا سبيل للمخابرة. وفي هذا تمثيل بسيط للدماغ المادي في الجسم البشري. فهل يتصور أن حقيقة المخابرة التلغرافية عبارة عن هذا الجهاز؟ لا شك أن الذي لا يعلم شيئاً عن النظريات الكهربية قد يبحث عن عوامل أخرى لهذه الكيفية، ولربما ينتقل فكره من جهة إلى عامل المخابرة أو إلى المهندس الذي بنى تلك المؤسسة، أو إلى المخترع الذي اخترع التلغراف، أو من جهة أخرى إلى البطارية الكهربية أو الأجزاء الكيميائية التي فيها. بيد أن الفكر يصل بعد إنعام النظر إلى السيال اللطيف أو إلى القوة التي نسميها الكهربية التي نعرف ما هيتها.

وهناك مثال أوضح من ذلك وهو: أن الزنبرك يؤدي إلى حركة تروس الساعة، والرقاص يتكفل بانصراف قوة الزنبرك في دائرة التدريج، وتنتظم الحركة. وإذا استقصينا الأمر وجدنا أن الساعة تمشي من جراء قوة

المرونة المنطوية في الزنبرك، وأن تأثير الرقاص منبعث ومتولد من قانون طبيعي. وفي باطن كل شيء سيالٌ لطيف على نحو هذه القوة الخفية. وكذلك العقل والروح. إن البشر لم يكد يكتشف الكهربية من آثارها حتى كون عنها فكراً، واستعملها في مصالحه، في حين أنه أدرك الحياة منذ ظهوره، ولم يكون فكراً عن كنهها، ولهذا سيبقى كنه القوة الغيبية التي نسميها الروح مخفياً إلى النهاية. إن الجسم والأعضاء وفي عدادها الدماغ، كأجهزة دائرة التلغراف والزُنبرك والرقاص. أما النفس والروح فكالكهربية والمغناطيسية والمرونة وأمثالها من اللطائف المكنونة في الطبيعة، ولكن الروح لَدُنِّية قدسية أكثر من كل ذلك. أظن أن الأديان تتصور الروح هكذا؛ فهي لا تفرض الروح شيئاً مجسماً كالدماغ المادي، الذي يكتسي غطاءً ساحراً يخفيه في ناصية من الجسم، ولا شك أن ما تقول الأديان أسمى وأوفق للعقل. فإن الذين يزعمون أن الشخصية البشرية عبارة عن الدماغ مثلهم كمثل الذين يظنون أن حقيقة التلغراف هي اللاقطة وأمثالهم من خفاف العقول. ومع هذا فإني أريد أن أذكر هذه الأمثلة تفهيماً أن وراء الأشياء والحادثات حقائق خفية، ولا أريد أن أقول إن الروح أو النفس الإنسانية مطابقة لهذا التصور؛ فلا محل للاعتراض لأنه لا جدال في التمثيل.

وكان لي صديق من الأطباء الأذكياء الحاذقين- توفى قبل سنين- وكان يعتقد أن كثيراً من منابع الحياة مجتمع في البنية الحيوانية، وأنه ليس لعموم البدن روح منفردة، وأن الحياة الحيوانية هي مجموع القوات

الحيوية الموجودة في حجيرات البدن، وكان يشبه كيفية الحياة بثقل الجسم الجامد، وهو عبارة عن مجموع ثقل الأتومات التي يحتوي عليها هذا الجسم؛ ويشبّه الروح الحيواني بمركز الثقل، ويرى أن لكل حجيرة حيوانية كافة الأحوال والخواص المندمجة والمشهودة في الحياة، بمقدار جزئي لا يكاد يُشعر به في حال انفرادها، ولكن تظهر آثار الحياة باتحاد بلايين البلايين من الحجيرات في الجسم الحيواني.

وهذا القول من الفرضيات المعلومة للعاديين بتعبير آخر، ويُرى أوفق للعلم من رأى المنكرين الذين سبق ذكرهم آنفاً، ولكن يظهر عند التعمق أنه أيضاً ليس بمطابق للحقيقة، لأن الأجسام الجامدة- سواء كانت من حيث مقدارها أو مركز ثقلها- مرتبطة بأجزائها ارتباطاً شديداً وتابعةٌ لها بصورة قطعية، وهذه الأجزاء- إن قلت أو كثرت- تغيرت صورة تركبها بتغير الثقل العمومي للجسم، وموضع مركز الثقل، والجسم ما دام حافظاً جسميته وحائزاً مقداراً من أتوماته مجتمعة ممتزجة لا يزول عنه النقل ولا يتغير مركزه. والحال أن الأمر بعكس ذلك في الجسم الحيواني؛ فالقسم الأعظم من أجزاء البنية الحيوانية والحجيرات يتبدل دائماً، وليس للحيوان ذي الروح علم بذلك ولا هو متأثر منه. حتى إذا مات الحيوان بسبب من الأسباب والحجيرات موجودة ببدنه- ظلت هذه الحجيرات محافظة على حياتها مدة يسيرة، ثم تحول بعضها إلى الهيكل العظمي، وبعضها إلى الجماد، وانفسخ بعضها بعد زوال ارتباطه بالبدن، وانقلب إلى حشرات أخرى.

فيفهم من هذا أن ما في الجماد من مركز الثقل ومحصلة القوى تابعة كلها للأجزاء، وحياة الحجيرات في أبدان الحيوانات تابعة لحيات تلك الحيوانات. فعلى هذا لا تشبه العلاقة التي بين الحياة الحيوانية وبين الحجيرات البنيوية- الرابطة التي بين الجسم الجامد وبين أتوماته أصلاً، فهما متضادتان تضاداً تاماً، وبناءً عليه فتشبيه الدكتور غير موافق وقياسه قياس مع الفارق. وكذلك إذا قُبل في الحجيرات ماهيةٌ حيوية غير مادية، فالتمسك بما يتعذر إثباته بالحساب والتجربة من الفروض للحياة الحيوانية لا يفهم سببه وحكمته.

نظرية موناد:

ونظرية «موناد»- التي وضعها «لايبنز» في العناصر الحيوية- خليق بالقبول إلى حد ما. لكن يلزم على هذه الحال أن يكون «الموناد» شيئاً مغايراً للأتومات المادية مغاير تامة وأن يكون توليده بالنفوذ في العضوية النباتية والحيوانية بتقدير الله وتدبيره، وهذا أمر أقرب للعقل، وإلا- أي إذا كانت العوالم حاصلة من «الموناد»، وحادثة من اتحادها واجتماعها بالصدفة- فيلزم ألا يكون فرق كبير بين الجمادات والحيوانات.

ويمكن أيضاً أن يكون الموناد حدث من الأثير، لكن على أسلوب وصورة غير أسلوب تشكل الأتومات والإلكترونات [٣١].

ويحسن بنا أن ندرس مسألة الحياة، مستفيدين من هذه الوسيلة: إنه من الأمور الواقعة عند تشكل النطفة في رحم الأم- أن الأجزاء المادية تتراكم

وتتركب في صورة منظمة مطردة على أنموذج معين لإيجاد الجنين. ولا شك أن هذه الكيفية ليست من آثار التصادف الأعمى. بل إن هذه الحالة والكيفية التي تتكرر على هذا النحو كنتليوناً أوسكستليوناً من المرات في العام في جميع التولدات الحيوانية- لابد أن تكون تابعة لقانون وقاعدة، والقانون والمصادفة ضدان لا يجتمعان. ولا يمكن حمل هذا التشكل على مهارة النطفة وحذقها. وإذا تصورنا النطفة ذات روح في حالة بدائية كان من العبث القول بأنها في حالتها الابتدائية تفعل ما لا يمكن أن يفعله وما لا يمكن أن يفهمه ذو روح في حال كماله! فمن المحال أن تتشكل النطفة وتتطور جسماً حيوانياً دون أن تكون خاضعة لمؤثر معنوي. كما أنه لا يتصور حلول الأجزاء المادية التي تجول في الماء والهواء في الرحم بواسطة التنفس والتغذي، واجتماعها حول النطفة بميلها الطبيعي، وتدبيرها وإرادتها لتشكيل الجنين، لأن الاكتشافات العلمية تدل على أن الأجزاء المادية تتحرك حركة قصرية خاضعة لقوانين معينة ولكنها مجردة من الإرادة الذاتية. والكيميائيون يركبون هذه الأجزاء المادية على النحو الذي يريدونه، وفي النسبة التي يعينونها، لاستحضار المواد المتنوعة والأملاح، بل الحجيرات، ولكنهم لا يستطيعون إنتاج أبسط الآثار الحيوية. أما افتراض أن الأجزاء المادية تكتسب حالة غير مادية لتشكيل العضوية- فهو قبول للروحانية. والعلماء- باعترافهم أن الماديات والروحيات ليست مشتركة المقياس- يسلمون بكون هذين الموجودين يختلفان تمام الاختلاف في ماهيتهما في هذا العالم، إلا أنهما قد يتحدان

في مصنع القدرة الإلهية، لأنهما من آثار منشئ واحد، ومن صنع صانع واحد [٣٢].

إذا تقدمنا في بحثنا خطوة أخرى، رأينا أن الطفل لا يكاد يولد حتى يريد أن يحافظ على حياته؛ فيطلب الغذاء. ومن حيث إن الطفل البشري لا يكاد يولد حتى يقابَلَ بعناية خاصة، فإنه يكون عند تولده في غاية العجز. ولا يقدر على إفادة ألم جوعه أو ألم اغترابه من العالم العالي الذي هبط منه، إلا بالبكاء. أما المهر والحَمَل وأمثالهما فبعد التولد بدقائق تقوم وتَدْرُج وتشم الأطراف، حتى تصل إلى حضن أمهاتها، ثم تجد وتكد حتى تجد أثداء أمهاتها، وترضع ألبانها، بتحريك شفاهها بأصعب الحركات التي قد تصدر منها في طول حياتها على هذا النحو. وتتناول غذاءها، وكل ما تنال حين تولدها من المعونة المادية هو لحس أمهاتها. ولا يتصور أن قد علمتها أمهاتها في أذانها ما ينبغي لها أن تفعله، لأن كلاً منها عاجز عن إفهام هذه الحركات الدقيقة بعد ما يكبر أيضاً. ومنذ نشأة الجنين في رحم أمه ما كان يقدر أن يقوم على أرجله، وما يتناول غذاءه بفمه بل بسرته. فمن ذا الذي علم هذا الحيوان كل ذلك [٣٣]؟!

إن القول بأن الغريزة (الحس الطبيعي) تفعل هذا ليس إلا كلاماً عامياً لا قيمة له. فإن اعتبار أن الغريزة التي لا يمكن إنتاجها في المعامل، ولا الحصول عليها بالمعادلات الجبرية أساساً للحياة- يعادل في غرابته استكناه أسرار الخلقة، وسلسلة الأسباب لا من مبدئها بل من وسطها، لأن الغريزة أمر حادث، فلا بد من عطفها على علة متقدمة.

فكيفية الحياة ليست محصول الأجزاء المادية، أو محصول القوة المادية المرتبطة بها، أو حصيلتهما، كما أنها ليست محصل القوات الحيوية التي في الحجيرات البدنية، بل هي أثر سرٍ عميق وحكمة لدنّية. ويتبين من ذلك أن الملاحظات التي أوردناها فيما سبق عن السبب الأول تنطبق على هذه المسألة، وأن الحياة التي ليست إلا قسماً من أقسام ذلك الكون، راجعة إلى السبب الأول بعينه، ومنتهية إليه. إنه لابد من الاعتراف بأن نفحة من نفحات القدرة والحكمة لمسبب الأسباب- هي التي أوجدت الحياة، وما يسميه الروحيون موجوداً لطيفاً- هو هذه النفحة الإلهية. وهذا يطابق بيان القرآن الكريم الذي يقول: «ونفخ فيه من روحه، وجعل لكم السمعَ والأبصار والأفئدة».

إن نشوء الحيوان من جهة جثته وقوته البدينة سريع، بيد أن قواه الفكرية لا تتكشف، بل تنحصر ملكاته في حفظ حياته وإبقاء نسله، وكلما كبر تناول بدل اللبن الشعير والحشيش، ثم يشعر بالحاجة إلى التناسل، ويفهم المخاطر ويحسها فيتجنبها، ويشعر بالحلو والمر، والوجع واللذة. وقد يتلقى تربية بسيطة من الإنسان بفضل حافظته، وكل شيء عبارة عن ذلك.

أما الإنسان فنموه البدني بطيء، بيد أن خواصه الروحية كثيرة، ومستعدة للنمو والظهور، ومتقدمة نحو التطور الفكري، وليس هذا التطور مقصوراً على المحافظة على الحياة وطلب اللذات. والإنسان يتلذذ بكل بديعة من بدائع الطبيعة، ويتاثر من كل حال من حالاتها، وهو مُقدم مدبر

في أمر جلب النفع ودفع الضر، متحر لأسرار الخلقة والحياة، متفكر في حقيقة الكائنات والحادثات، وقد أدى تحفظه وانتفاعه واستقصاؤه على هذا النحو- إلى اختراع الكتابة والمنطق والحساب والعلوم والفنون والصنائع.

وهذا الفرق العظيم بين الإنسان وسائر الحيوان محل تأمل وملاحظة، لأن الإنسان من حيث جسمه ومعيشته وتناسله قريبٌ من سائر الحيوان، وخاصة من ذوات الثدي؛ فهل هذا التفوق العظيم ناشئ من القوة الفكرية ومن روح غير الروح الحيوانية؟ أو من تطور الروح الحيواني؟ فهذه المسألة مختلف فيها بين الحكماء.

فأما علماء الإسلام فذهبوا إلى أن في الإنسان روحاً إنسانية عدا الروح الحيوانية المانحة للحياة، ونفساً ناطقة؛ وهي منشأ التعقل والتفكر. والقرآن العظيم لم يبين هذه الجهات بأمره الجليل [ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي]، وهذا يجعل حقيقة الروح من الأسرار. فعلى هذا يلزم أن تكون الروح مما لا يُدرك ولا يفنى، تبعاً لمنبعها. وعقل الإنسان لا يمكن أن يتلقى شيئا سوى هذا في الروح.

وأما الفلاسفة والحكماء الروحانيين الذين أتوا منذ ثلاثة عشر قرناً إلى زماننا هذا، فعرفوا الروح بأنها جوهر روحاني مجرد عن الأبعاد ولا يفنى، ولكن إطلاقهم على الروح أنها روحانية كإطلاقنا على الإنسان أنه بشر، لا يفيد فائدة زائدة، ولا يكشف عن السر، والإنكارُ من قبيل الكمية السلبية ليست له قيمة.

إن الرياضة والحكمة والكيمياء والحيويات والروحانيات والتشريح وعلم وظائف الأعضاء وغيرها من العلوم نفذت نفوذاً كبيراً في أسرار الخليقة، وكشفت عن أسرار ودقائق لا يمكن ذكرها بالتفصيل في هذا الكتاب، ولا ضرورة له.

ومع هذه التدقيقات، ظل السر الحقيقي للخليقة، والأمر اللدنّي لحدوث المواليد الثلاثة، والنشوء والتناسل والحس والإدراك والتفكر والإرادة- مجهولاً ومستوراً. فإنكار المسبب الأول والاعتقاد مثلاً في الأسباب التالية كحُبيبة القوة، والأتوم، والحُجيرة البدنية، والحس الحيواني وغيرها- وهي أمور محسوسة، متصورة، مفروضة- لم يكتشف ما وراءها، ولم يعلم مصدرها، وإسناد قدرة التكوين والإحياء إليها لا يصح أن يعتبر إلا وثنية علمية.

***

قد تبدو هذه التفصيلات عن الروح في مبحث الإله خارجة عن الصدد، ولكننا لم نتخذ بحث الروح موضوعاً لمبحث منفرد في هذا الكتاب، حيث رتبنا بابه الأول الباحث عن العقائد الإسلامية، وفاقاً لأركان الإيمان، في حين أن الروح مذكورة في القرآن، فيجب الاعتقاد بها، مع أنها ليست معدودة في أركان الإيمان، فتعلقها ببحث الإيمان ظاهر من قوله عز وجل: «قل الروح من أمر ربي».

ثم إن الماديين في إنكارهم المولى تبارك وتعالى يتعمدون إنكار الروح، غافلين عن أنهم بإنكارهم هذا ينحطون من منزلتهم، ويهبطون بها إلى درك الجمادات، ولهذا قد استحسنا البحث عن الروح في هذا المقام.

***

نرجع إلى بحثنا بعد ذلك: إن الأدلة القوية التي ذكرناها فيما سلف مع أقوال الحكماء المشهورين تقنع أرباب العقل والإنصاف بوجوب خالق قدير حكيم مطلق لملك الخليقة علماً وعقلاً، بيد أن عقل البشر لا يستطيع أن يتجاوز حدوده في إدراك وجود الخالق وإثباته، ولن يصل إلى سر ذات الله، لأن الإدراك والتعقل إنما يحصل بالقياس. وهذا أمر متفق عليه عند الحكماء والفلاسفة؛ فمن المعلوم أن الحرارة تدرك بالقياس على البرودة، والكبر بالقياس على الصغر، والحسن بالقياس على القبح، والألوان بقياس بعضها على بعض، وهلم جرا؛ وقد تتسع هذه الحركة وتتشعب بالانتقال من البسيط إلى المركب. ولكن الأساس هو القياس والنسبة؛ إذن يجب أن يكون العقل البشري عاجزاً عن إدراك الذات المطلقة المنزهة عن الشبيه والنظير. والعلم يعترف بعجزه في هذه المسألة. فإن الذات الإلهية سرمدية، كاملة في أوصافها، ولا نهائية في حكمتها وقدرتها في حين أن العقل البشري المحدود يعجز عن إدراك السرمدية والكمال المطلق واللانهائية. ولابد من أن يقصر عن إدراك السر اللدنّي الأعظم، المتصف بجميع هذه الأوصاف. والفلسفة السالمة تسلم بهذه الحقيقة.

مسألة الزمان والقضاء

لما ورد ذكر الأزلية واللانهائية تبادرت إلى الذهن مسألة الزمان والفضاء، فلهذه المناسبة استحسنت أن أذكر كلمات في هذه المسألة التي جرت فيها المباحثات بين الحكماء من قديم الزمان. ولما كان وجدان البشر الفاني بذاته قد ألف أن يرى الأشياء كلها حادثة وفانية، واعتاد أن يتحرى في الكائنات كلها مبدأ ومنتهى، فإنهما إذا ذُكرا له استقصى- بمقتضى طبيعته- ما قبلهما وما بعدهما، وكل متفكر يحس في نفسه هذه الحال. فهذا الاستقصاء يدل على أن عقل الإنسان لا يحيط بالأزلية والأبدية، وإذا ذُكر مبدأ ومنتهى وعُيِّنا فلا يقنع بهما، بل يفحص عما قبلهما وما بعدهما، ويسترسل في ذلك، أي لا يقبل محدودية الزمان أيضاً. وإن كان الناس اتخذوا لتقدير الزمان مبادئ مختلفة للتاريخ، وعينوا مدة الزمان بالثانية والسنة والعصر والقرن، ولكنها أمور اعتبارية. ولما كنت أفعال الأشخاص والجماعات وحركاتهم حادثة وفانية مؤقتة، محدودة كذاواتهم، مالوا غالباً إلى تحديد الزمان بالتمثيل، فأكثر حركات أهل إستانبول وأشغالهم اليومية محصورة في أوقات قدوم البواخر والقُطر ورجوعها، ومُدد بقاء الجماعات والدول والحكومات وتواريخهم تابعة للحوادث ومعرضة للانقلابات، فهي لأجل ذلك محددة. وأما الخلاق الأزلي، القادر المطلق، الفعال لما يريد، فكما أنه لا يمكن أن يتقيد بقيد وشرط فإنه لا يمكن كذلك أن يتقيد بزمان. وبما أن الخلق والتكوين من صفاته الأزلية، فإنه يلزم أن يكون الزمان الذي يحتوي على شئون الخلقة

أزلياً وأبدياً، أي لا نهائياً. الإنسان الفاني يدرك أجزاءه المحدودة ولا يقدر على أن يدرك كله، ولكن إذا وجدت أجزاء شيء فلا يجوز أن يكون الكل مفقوداً، وهذا الكل موجود بين الأزل والأبد، أي أنه غير محصور، فعلى هذا الزمان والدهر المطلق واللانهائي موجود. وقد حسب علماء الإسلام الزمان مخلوقاً لأن ظهوره يحتاج إلى حركات وسكنات المخلوقات وتوالي الحادثات، ولكنه وإن كان مخلوقاً إلا أنه امتداد سرمدي، على تعبير شيخ المرحوم موسى كاظم أفندي.

وهذه الملاحظات جارية بعينها في الفضاء. فمثلا لو قيل لرجل حصل على شهادة الكفاءة على النظام القديم. واشتغل بعدها بالزراعة أو التجارة: «إن الضياء يقطع في الثانية مسافة ثلاثمائة ألف كيلو متر، أي يدور حول خط الاستواء سبع مرات ونصف مرة في الثانية، [إن فارساً لو قطع في كل يوم مسافة ثمانية فراسخ، أي أربعين كيلو متر بدون موانع أرضية، وبلا انحراف، لقطع هذه المسافة في ألف يوم]، والثوابت التي نراها يوجد بينها ما هو أكبر من الكرة الأرضية بملايين وبلايين من المرات، وهناك كواكب تبعد من الأرض ٤٥٠ مليوناً من السنين الضوئية، ستمكن رؤيتها إذا بلغت الآلات الرصدية حد الكمال [٣٤]– لو قيل له هذا لتحير من هذا الخبر العجيب. ولكنه يسأل نفسه بعد هذه الحيرة عما وراءه. ولقد قيل له إن هذا المُلك ملحوظ امتداده ليتحرى حدوده ومنتهاه؛ فوجدان البشر مجبول على أن يتحرى حداً للمكونات، وهو الحقيقة على أغلب الاحتمال. فالمجرة، أو عموم الكائنات المجرية- التي

هي على قول أينشتين متناهية ولكنها غير محدودة- لو سارت من ابتداء خلقتها إلى الأبد بالسير السريع، أو ابتدأ في التكون عالم آخر بعيد عن المجرة التي نراها، بتريليونات سنة ضوئية، هل يتصور لهذا مانع؟ لا شك أنه لا مانع من ذلك! فعلى هذا يلزم أن يكون الفضاء غير متناه. إن قيل إن الفضاء خلاء وعدم، فالجواب عنه أنه يمكن أن يفسر الفضاء في هذا الموضع بالمكان، مقابلاً للزمان، فعدم المكان يكون بعدم إمكان استيعابه للمكين، لا بالخلو، فهذا الحال لا يتحقق في شأن الفضاء. العالم كله بهيئته العمومية [٣٥] متحرك على أغلب الاحتمال، والحيز أو القسم الفضاء الذي شغله أو سيشغله في أزمنة مختلفة موجود، فبأي حق يُنكر مجموع هذه الأحواز؟ قال «الأب مورو»: إن الشيء القابل للمساحة والتعداد وله أجزاء معينة ومنفردة- لا يمكن أن يكون غير متناه. وهذه الدعوى قد سعى صاحبها لإثباتها بالأقيسة المنطقية، وليس له قدرة على الجواب عن مثل هذه المناظرات، ولكن الحكيم إذا سلم بالأزلية فهو مجبر على أن يقبل عدم تناهي الشيء الذي فرض تكرره وتماديه من الأزل، فحينئذ هو مجبر على أن يسلم بلا نهائية مجموع الأحواز الذي تشغله المجرات أو العوالم التي حدثت من قبل، أو التي تحدث من بعد.

وإني لأذكر المثال الآتي لتقريب فكرة الفضاء؛ تمتد ابتداءً من القرية المبنية على أنقاض المدينتين التاريخيتين؛ سبأ ومأرب، والكائنة في المنتهى الشرقي من بلاد اليمن إلى سواحل البحر المحيط الهندي، وإلى حضرموت والحسا وسواحل خليج البصرة- أراض جرداء وخالية ليست

بها قطرة من الماء، فلو ضل رجل الطريق ووقع فيها، ثم خرج منها سالماً بوجه ما، ورجع إلى القرية، وسُئل عن أحوالها، لقال إنها أراض خالية من حي متنفس. ولكن إذا أُصلح سد مأرب، وسقى قسم من الصحراء بإجراء المياه فيمكن فيها المرور والعبور، ويمكن أن تحدث فيها- كما في السابق- مدن كثيرة وغابات أشجار. تحتاج الدواب الأرضية للدوس بأرجلها، والعمران البشري لوضع الأساس، والنبات والأشجار لتمديد وتعميق عروقها- إلى أراض صالحة، وسطح الأرض مما يُحتاج إليه. والموجودات الجوية سابحة لا تحتاج إلى مسند. فعلى هذا القياس يلزم أن يكون الفضاء اللانهائي موجوداً، لأنه مسير للكائنات الموجودة به، ومحل لتجلي صفة التكوين الإلهية [٣٦].

فيستنتج من هذه التفصيلات أن الله تعالى مسبب الأسباب وكل شيء، موجود سرمدي في كل آن من الزمان، من الدهر الذي ليست له بداية ولا نهاية، وإرادته وعلمه وقدرته جارية ولا حقة وسارية بلا مانع في الفضاء الذي ليست له نهاية. وهذه الملاحظات والنتائج تستلزم أن يكون كنهه تعالى متعالياً ومنزهاً عن إحاطة عقل البشر به، لأن الإنسان بحسب صورة تعقله عاجز عن إدراك الأبدية والأزلية والمطلقية وعدم التناهي، ومع هذا لا يقدر أن يتصور الابتداء والانتهاء والمحدودية في العالم وفى الخلقة، ويستحيل فيه ذلك. فالعلم يثبت وجود المسبب الأول، ويصف عظمة شأنه على قدر الإمكان، ويظهر عجزه عن إدراك كنهه وسرد ذاته، ويختار السكوت عنه مفوضاً أمره إلى النقل؛ أي إلى الدين.

كررت كون الذات الإلهية فوق الإدراك في صورة قد تُورث القارئ الملل. ولكن الاختلافات كلها نشأت من هذه المسألة، فلذا كان تكرارها وتأكيدها واجباً. فإن الإنسان غير قادر على أن يمتنع عن تأمل مالا يفهمه. فمن الناس من يظن أنه عرف حقيقة الخليقة؛ ويذهب إلى العقائد الباطلة، ومنهم من يصل إلى حد إنكار مالا يدركه؛ ومن هذا ينشأ الإشراك والإنكار. فهذان هما الإفراط والتفريط، وهما نتيجتا الاستعجال في الحكم ببادئ الرأي، أو فرط الاعتماد على العقل والعلم والاغترار بهما. وأما المعتدلون الذين يُعَينون منصفين حدود قوة إدراكهم، وقابلية تفهمهم، فلا يتجاوزون عنها، وقد قنعوا بوجدانهم بالذي قدروا على إدراكه مع سعي في تعمق الفكر، وبهذا يصلون إلى الحقيقة.

***

ويُستنتج من خلاصة ما بسطته إلى الآن من الأدلة العقلية والعلمية عن المسبب الأول:

أولاً: أنه واجب الوجود وواحد، (ودليله العقلي نظرية العلة الأولى).

وثانياً: أنه أزلي، (لأن تقدم المسبب الأول على كل موجود، وامتناع أن يخلق ذاته من عدم- أمران طبيعيان وظاهران).

وثالثاً: أنه مطلق، (لأنه غير معلول، بريء من كل شرط وقيد، ومنزه عن الشريك).

ورابعاً: أنه حاضر وناظر في كل مكان، (Ubiquité) (لأنه نافذ في جميع الموجودات علماً وقدرة، وحاكم حافظ لانتظام العوالم. ويصف فلاماريون الخالق تعالى- اقتباساً من نظرية نسبية الحركة وقدم القوانين- بأنه موجود مستقر في كل لحظة من الزمان، وفي كل نقطة من الفضاء).

وخامساً: أنه عليم وحكيم، (أثبتنا هذا بالحسابات الرياضية للاپلاس).

وسادساً: أنه قدير، (إذا سُلِّمت المواد المتقدمة تُقْبَل القدرة المطلقة السبحانية، استدلالاً بآثار خلقته).

وسابعاً: أنه لا يموت، (لأن العلم والحكمة والقدرة الفعالة لا تقوم ولا تتحقق إلا بالحياة).

وثامناً: أنه باعتبار حقيقة ذاته فوق الإدراك، (قد أثبت ذلك تكراراً). وهاك العقيدة التي يعلمها الإسلام عن الخالق المتعال، فالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، متفقة على أن الله تعالى:

١- واجب الوجود، أحد، صمد، لم يلد، ولم يولد.

٢- قديم، دائم.

٣- فعال لما يريد، لا كُفُؤ له ولا نظير له، أي أنه مطلق وفوق القياس.

٤- محيط بكل شيء، أقرب إلينا من حبل الوريد؛ أي حاضر، وناظر بعلمه وقدرته في كل مكان.

٥- عليم وحكيم، لا حد لعلمه وحكمته.

٦- قدير، لا نهاية لقدرته.

٧- حي وقيوم.

٨- منزه عن إحاطة العقول به.

فيُرى أن الإيجابات العقلية والعلمية موافقة ومطابقة للتعاليم الإسلامية. إلا أن الأديان تثبت لله تعالى بعض أسماء وصفات لتقريب الوجدان البشري إلى ذات الربوبية، وتحمّل الإنسان وظائف وتكاليف باسم البارئ تعالى. وسابحت عن الوظائف الدينية في المستقبل. أما الصفات فإن كانت تصور تبجيل عظمة الله تعالى وجلاله في حدود العقل فتقبل، وإلا فلا. وإذا صُوِّر الله تعالى بحسب آرائنا- حاشا لله- وأسند إليه ما يشبهه بنا أو بسائر مخلوقاته، فإن ذلك يكون شركاً وإلحاداً؛ «سبحانه وتعالى عما يصفون». وهذا النظم الجليل برهان قاطع في هذا الباب. والقول الحق المنقول عن بعض الصديقين: «العجز عن درك الإدراك إدراك، والبحث عن سر ذات الله إشراك»- يجب اتباعه.

الصفات الثبوتية والسلبية التي لقنها دين الإسلام في شأنه تعالى معقولة كلها وطبيعية، والتعليمات المحمدية بصفائها الأولى منزهة عن كل الأباطيل، والقرآن العظيم أثبت بالآيات البينات أن جناب الخالق الذي لا نظير له ليس له كفؤ، وهو منزه ومتعال عن الأفعال والطبائع والتأثرات البشرية. ومع هذا يعترض بعض المتفكرين على الدين لقبول

بعض الأوصاف، كالحياة والإرادة والقدرة والعلم والحكمة والرحمة التي تتصف بها ذوات الأرواح، ولا سيما الإنسان- في الصفات الإلهية، ويحملونه على إثبات نوع من المشابهة بين الخالق والمخلوق- حاشا لله- ويدعون أنه إما ميل إلى هذا الظن الباطل والضلال (الكمشبهة والمجسمة)، وإما وقوع في التناقض بين تنزيه الخالق وتشبيهه بالمخلوق. ولكن يتبين بتعمق الفكر أن كلا القولين ليسا بصواب. فالأديان لا تقبل في ذات الله تعالى إلا وجود كمال هذه الأوصاف في البشر. والحق أن الاقتناع بأن خلقة العالم ليست أثر المصادفة- يدل على الإيمان بوجود خالق مريد وقدير وحكيم، لكن الخواص التي في المخلوقات كالإرادة والقدرة والحكمة متجلية من منبع أصلي بمثابة ذرة، ونسبة هذه الذرة إلى ذاك الكل لا تشبه نسبة الذرة الضيائية إلى الشمس؛ لأن الشمس فانية ومحدودة، والمنبع الأصلي الراجع إلى الخالق تعالى سرمدي ومطلق ولا نهائي ومنزه عن كل قياس، ومتعال؛ فعلى هذا لا مشابهة بين قدرة البشر وذكائه المحدود، وبين قدرة الله سبحانه وحكمته البالغة، وقس عليه البواقي.

وقد انتشر بين الجهال مثل هذه العقائد الباطلة، وأساطير وخرافات من معتقدات الأقوام المختلفة العتيقة، بسبب الاختلاط الذي حدث من سرعة انتشار الإسلام، حتى إنها- مع الأسف- أدرجت في بعض الكتب، وتدخلت فيها تخيلات الشعراء أيضاً. وسنبحث عن الأفكار والظنون الباطلة الغريبة التي ظهرت في الإسلام. وفي اعتقادي أنه يجب على

علماء المذاهب والفرق المختلفة، أن يجتمعوا ويتذاكروا، ويزيلوا هذه العقائد الغريبة والظنون الباطلة من بين المسلمين. وبهذا المشروع يُرجي أن تزول الاختلافات المذهبية أيضاً، أو على الأقل أن يزول ما تولد منها من المخاصمات.

فلسفة وحدة الوجود

والآن حان لنا أن نسرد بعض ملاحظات على فلسفة وحدة الوجود (Pantheisme). ظهرت هذه الفلسفة في الهند، في صفة عقيدة دينية، وانتشرت في الشرق الأقصى، وتركت أثرها في الشرق الأوسط، ثم دخلت مصر وبلاد اليونان باسم الفلسفة. ولما كانت الأزمنة الأخيرة نشرها ووسعها مشاهير الفلاسفة، أمثال اسپينوزا وفخنه وهيكل. بناءً على هذه العقيدة، الخالق والمخلوق واحد، وكل موجود جزء من الوجود الحقيقي، ومن الكل المطلق، وتجل من تجلياته، فهو ينفجر من هذا المنبع الكلي، ويسير في الأكوان، ثم ينصب فيه، ويرجع إليه.

بما أن التصورات والمباحث الخاصة بسر الخلقة لا يمكن إفهامها حق الفهم، فمن الضروري إيضاحها في صورة تمثيلية على قدر الاستطاعة. وحينما كنت أدرس الفلسفة في شبابي، طالعت كتاباً فيه تشبيه للمناسبة بين ذات الخالق والمخلوق- بالمناسبة بين البحر وأمواجه وحُبيباته، ويقول: كما أن هذه العوارض ليست غير البحر، كذلك الكائنات ليست غير الكل المطلق، ويريد بهذا إيضاح هذه العقيدة. ولكن أليست التحولات التي في سطح البحر، هي أثر الرياح على سطحه، وأثر

الأسماك السابحة في داخله؟ إذا قبلنا حدوث المصنوعات من تأثير الشيء الذي في داخل الكل وخارجه، فقد اعترفنا بوجود مؤثر. فعلي هذا يكون تحري كنه هذا المؤثر والمسبب الأول، واكتشاف علاقاته بالمخلوقات- مالا يمكن أن تتعلق به قوتنا الفكرية. وهذه الكيفية على ما ذكرناه آنفاً ثابتة بالعلم.

في مثل هذه المباحث لا مناص من الاعتراف بالعجز، فإن أُومِنَ بالمحرك والمؤثر الحقيقي أو بالسر الأعظم، فكل التحيرات في أمر الخلقة جمعها في قدرته، ومنع العقل وكفُّ اللسان من تحري كنهه- أوفق للحكمة.

ومع ذلك هذا المذهب الفلسفي- نظراً لما كان في ظهوره- نزيه ولطيف وملائم لتخيلات الشعراء، ولهذا أخذ أشكالاً جذابة للقلوب في لسان الشعراء، ودخل في بلاد الإسلام من الشرق والغرب، وصار مقبولاً عند بعض الفرق والنحل. كما أن القواعد التي دونت ونُشرت باسم «تيوصوفي» بلغات أوربا المختلفة نتيجة هذه الفلسفة، فكذلك عقيدة وحدة الوجود عند المتصوفة في الإسلام فإنها قريبة من هذه الفلسفة.

لئلا يبقى محل لسوء التفهم، أرى لزاماً أن أذكر قبل كل شيء أن الطرق الصوفية الجادة والمعتبرة في الإسلام تعتقد وجود المطلق بمعنى الإله، وتقرُّ بما بينه وبيننا من الصفات الثبوتية والسلبية، وتؤمن بالنبي والكتاب، وتتبرأ دائما مما زيد على تعاليمه من الخرافات، لكنها تعد ما سوى الله غير موجود، وهذا ينافي العقل والمنطق. لأن إنكار المخلوقات،

بعد تصديق الخالق والخلقة لا يتفق والمنطق. والحق؛ أن الله الخالق المتعال هو الموجود السرمدي، وبهذا الاعتبار هو الموجود الحقيقي. والكائنات كلها حادثة في الظاهر، متغيرة فانية هالكة، ووجودها لا يعد شيئاً بالنسبة إلى الأزلية، ومع هذا لا يجوز أن يقال: إن آثار قدرة الله وآياته ليست بموجودة! فلو كان الأمر كذلك لحسب الإنسان نفسه والتكاليف المعنوية والقوانين الأخلاقية كلها معدومة، وانتهى بذلك إلى أسوأ النتائج! ولا تكون الفلسفة والعقيدة البشرية صادقة حقاً إلا إذ كانت نافعة، وإلا فهي باطلة.

ومن حيث إن الأشياء من مخلوقات الخالق الأزلي، ومن محصولات قدرته وقوته اللانهائية، ومن آياته وأدلته الباهرة على وجوده السرمدي- فلا يمكن أن تعد وتعتبر معدومة، ولو كانت معرضة للتغير والفناء، فإن أعمارها لا يمكن إنكارها مهما كانت قصيرة.

وأما اعتبار الصوفية الأشياء مرآة للذات الإلهية، فينبغي حمل مثل هذه التعبيرات على المجاز والاستعارة. إني لم أنتسب إلى طريقة من الطرق الصوفية، ولكني قرأت في شبابي وحفظت أبيات وعبارات، أتذكرها الآن بكمال الشوق والتلذذ، وهي أمور لا يمكن إثباتها بالمنطق والعلم، ولا تدركها العقول المتوسطة، إلا أنها تثير القلب من تصور معانيها المجازية، وتتلذذ الروح منها. فلهذا لا يجوز أن تعم مثل هذه الأحكام في أمور الدنيا السوادَ الأعظم، ولا ينبغي ذلك.

ولا يجوز أن يدعي بأن التصوف خارج عن الحقيقة الدينية الإسلامية، ومن رجاله الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربي، ومولانا جلال الدين الرومي، المبجلان اللذان يجلهما أكابر علماء الإسلام.

ومن أهم الغايات في المذاهب والأديان صيانة الأخلاق. وقد كان مصير مذهب وحدة الوجود بعد ظهوره في الهند وانتشاره كدين، إلى أن نُشرت العقيدة بأن الذين يحسنون العمل من بين ذوي الأرواح يتقدمون في إحراز الدرجات العاليات شيئاً فشيئاً، حتى يصلوا بالتطور التدريجي إلى الكل المطلق، والذين يسيئون العمل من المذنبين، يعودون إلى عالم الشهود في أسفل منزلة؛ ومن هذه العقيدة تولدت عقيدة التناسخ. وبيننا بعض النحل والملل الابتدائية ما يذهب إلى هذا المذهب، كما ظهر المؤمنون بهذه العقيدة في خارج العالم الإسلامي حتى بين الحكماء.

***

إن الإنسان مهما عرف هُوية أبناء نوعه، يعجز عن النفوذ إلى ما في ضمائرهم وعن الوقوف على نياتهم، فالتصدي للاستفهام عن مراد الله سبحانه وتعالى الذي نعترف بالعجز عن إدراك سر ذاته- على قصد الإنكار- يكون مردوداً. والتصديق بالآية الكريمة «لا يُسئل عما يفعل» يكون ضرورياً من الضروريات العقلية. ويلزم أن تحفظ هذه النتيجة لتكون مدارا للاحتجاج والاستناد في الملاحظات الآتية.

٢- وملائكته

والاعتقاد بالملائكة الكرام من شروط الإيمان في ديننا. وقد ذكر اسم الملائكة مرات في القرآن الكريم. ويفهم من كل ما ذكر من صفاتها ومناقبها، أنها موجودات لطيفة، لا تُرى بالعين في الأحوال العادية. ولكن لا تحول الجدران الأربعة دون حلولها. وأما فعاليتها فسارية آنياً إلى أبعاد شاسعة وأرجاء كثيرة. فلذا يلزم أن يكون الملائكة موجودات لطيفة. ومع ذلك لا يمنع كون الملائكة موجودات لطيفة من أن تحدث في الدماغ البشري إحساساً بوجودها، أو تأثيراً فيه بأسلوب ملائم للعقل البشري.

يشعر علم الطبيعة دائماً بالحاجة إلى واسطة لطيفة لتأثير بعض القوى والحالات، كالحرارة والضوء والكهربا وانتشارها. وعلى ذلك فليس من المستحيل- كما يقول المنكرون- أن يكون للناظم الحقيقي لأمور العالم ونظامه وسائط تنفيذية لطيفة في المعقولات والنفسيات والمعنويات، كما في المشهودات والمحسوسات. إنه غريب جداً أن يقال باستحالة بعض الأمور الغيبية، بعد النظر والبحث في عظمة الخليقة ودقائقها، وتصور مؤثر حقيقي لها، والإيمان به.

يفرض الحكماء- كما سبق ذكره بالمناسبة لتفسير الحادثات الطبيعية- واسطة لطيفة إلى حد لا تتأثر بالجاذبية، ويسمونها الأثير. وبناء على هذا الفرض الذي يعتمد عليه كثير من موضوعات الطبيعية ومباحثها، ينتقل الضوء والحرارة الكهربا وغيرها من القوى الطبيعية، وتنتشر بوساطة تموجات هذه القوة اللطيفة- كما ينتشر الصوت بالتموجات الهوائية- غير

أن تموجات الأثير تختلف في طول كل شعاع من الأشعة المكونة لألوان الشمس السبعة وسرعته [٣٧]، كما تختلف أبعاد تموجات الحرارة والكهربا وبعض الأشعة الكيميائية والطبيعية. وبناءً على هذا يهتز بعض الأثير دائماً بموجات لا عدد لها متداخل بعضها في بعض، وتحدث الرؤية وكثير من الحادثات الطبيعية من هذه التذبذبات والتموجات، فتنتقل إلى حواسنا. فالواقف فوق قمة «چامليجة» ناظراً إلى أطرافه أو موجهاً نظره ليلاً إلى الكرة السماوية، يصل إلى حدقة عينه- بناءً على هذا الفرض- كثير من أشعة المباني والأشجار والسفن وآلاف من الكواكب مختلفة اللمعان، أو بعبارة أصح: تصل أشعة ترسلها الذرات الخارجية المحيطة بالأشياء الواقعة تحت نظره من جهات مختلفة ولا يحدث أي تشوش واضطراب في تلك الساحة الصغيرة من هذه الموجات التي لا يحصرها العد، والتي تختلف في الطول والسرعة لكل شعاع من تلك الأشعة، ولا تختل الرؤية! فكيف يصدق الذين يشاهدون مثل هذه الأحوال دائماً هذه النظرية- لتسميتها علمية- ولا يصدقون القوى والأحوال الغيبية، ويرونها مستحيلة!

وثمة أمر آخر، وهو أنه يلزم لأجزاء الأثير التي تنفذ في كل مكان ألا تغير أماكنها حتى تكون أساساً لكل هذه الموجات؛ أي يقتضى أن يكون الأثير أصلب من كل الأقسام الصلبة، وأشد من الفولاذ! على حين ثبت أن ذرات جميع الأجسام- ومنها الأجسام الصلبة- متحركة بحركة دائمة رَقصية متزايدة السرعة على حسب درجة لطافتها (الحركات البراونية

(Mouvements brauniens)، ومع ذلك ليست لهذه الهوية الرقيقة (أي الأثير) أدنى مقاومة لحركات مالا يحصى من الأجرام الجسيمة المتحركة في الفضاء، والأحجار السماوية، والشهب والغبار السماوى. كما أن حركات هذه الأجرام ومرورها الدائم منذ الخلقة لا تبدد هذه المادة الغريبة الهشة اللطيفة إلى أقصى حد! هكذا يصدق علماؤنا المحدثون- بلا تحقيق ولا مناقشة [٣٨]- هذه الفرضية العلمية الحافلة بالغرائب والمتناقضات- لتسميتها علمية- ويستهزئون بما ذكرته الكتب السماوية من الموجودات اللطيفة، بله الإيمان بها! وخليق بأمثال هؤلاء أن يُخاطَبوا بهذا المصراع للشاعر التركي فضولي: «إنك ثمل بكأس الجهل والغفلة فلا تدرك نفسك!». إني أعتقد أن ذكر الكتب السماوية لهذه الموجودات والسيالات الرقيقة في زمن لم يتخيلها فيه العلم بعدُ- خليق بأن يُعد من المعجزات.

وخليق بالتنبيه خاصة أن الحكماء الذين أحسوا حاجة إلى هذا الأثير لتفسير كثير من الأحوال والأحداث الطبيعية- اعترفوا بكونه غير قابل للوزن، (Impondérable)، وثمة أسباب صحيحة لهذا. ولكن القول بعدم قابليته للوزن يعني كونه غير مادي، لأن ثقل المادة من الضروريات العلمية، حتى إن ثقل ذرات الإيدروجين حُسبت وقُدِّرت عند العلماء. والحق أنه لا يمكن التأليف بين تلك المتناقضات إلا بالقول بعدم مادية الأثير. إذن فالحكماء يقولون بوجود غير مادي، ويجعلون الحس بعالم المادة والشهادة ومشاهدته منوطاً بتوسط هذا المحيط غير المادي.

ومثل هذا الفرض العلمي إذا أنعم التفكير فيه انتفى عن المرء العاقل الفاضل الميل إلى وادي النفي والإنكار والانحراف في أمور كثيرة.

***

وبهذه الطريقة نفسها يمكن فرض الجن والشيطان من قبيل سيالات رقيقة، أو موجودات لطيفة. فبينما المرء خالي الذهن، إذ تطرأ عليه أفكار وهواجس ضارة؛ ومن لاحظ نفسه لم ينكر هذا الحس. وأي عجب في تسمية ما يلقى هذه الأفكار والهواجس بالشيطان، فما وجه الاستغراب في هذه التسمية والاستهزاء بها [٣٩].

إن المعلومات في الأزمان الأخيرة عن المغناطيسية الحيوانية، والإحساس بالشيء قبل الوقوع، والتأثر والتأثير من بُعد (Télépathie) والتلقين (Suggestion) وما شاكلها من الغرائب الفكرية والنفسية، تفوق كثيراً المعلومات عن القوة الكهربية قبل قرنين. فبأي شيء تحدث هذه الأحوال الغريبة؟ والعلم يبحث عن واسطة لطيفة حتى للجذب والدفع بين ذرات كل جسم؛ أما يتصور الذين يتسمون المتفننين عندنا وسائط خفية لمثل هذه الأحوال الروحية؟

ألف كميل فلاماريون الذي قضى زُهاء أربعين أو خمسين عاماً في بحث المؤثرات الروحية والقوى الخفية وتأثيرها- كتباً عديدة في هذا الموضوع، وقال في كتابه القوة الطبيعية المجهولة: «إنا نحيا في عالم لم يستكشف بعد، تقوم فيه القوى النفسية Forces psychiques بتأثيرات

لم يُستكشف بعد استكشافاً حقيقياً، ص ٥٩٩». وقال في موضع آخر: «لا أقول إن الأرواح اللطيفة كالجن غير موجودة، بل ثمة أسباب كثيرة للاعتراف بوجودها ص ٥٩٣».

بناء على ما ذكرت سابقاً من قول لابلاس، يحفل هذا العالم حولنا بكثير من القوى الخفية. والادعاء بعدم وجودها لعدم إحساس حواسنا الظاهرة بوجودها ما هو إلا مكابرة [٤٠]؛ فقد كنا منذ قرن نكاد نجهل الكهربا جهلاً تاماً. ولو تحدث رجل في ذلك الوقت عن إمكان المخابرة بلا واسطة من ألوف الكيلو مترات في لحظة غير منقسمة، لعُد ولياً بلا شك! على حين أن هذا الحادث جد بسيط عندنا اليوم. وبالرغم من نقص معلومات أجدادنا عن القوة المغناطيسية في القرون الوسطى نقصاً شديداً، كانت هذه القوة موجودة في العالم، مؤثرة فيه، وكان قطب الأرض المغناطيسي قائماً في النقطة التي فيها اليوم، وكان الجو النسيمي، بل الجسم البشري أيضاً- متأثراً بالحزمات المغناطيسية التي ترسلها الشمس.

إن امرأً مولوداً أكمه يعيش إنساناً ويختلط بالجماعة البشرية، وقد يكون فيها عضواً نافعا أو ضارا- ولكنه يجهل كثيراً من البدائع التي نراها ونشاهدها، فهل يقال إن قبة السماء الزرقاء غير موجودة لعدم رؤيته إياها؟! وألا توجد في العالم نغمات مشجية مثيرة لوجد أرباب الإحساس والعشق، لأن أصمَّ لا يسمعها؟! وكم من مكتشفات يستكشفها البشر كلما زاد تطوراً! وسيكتشف كثيراً كلما اتسع ذكاؤه ورقت حواسه ونضجت.

إلا أنه سوف يظل محروماً من كثير من لطائف الخليقة، غير أن هذه المخلوقات لا يلزم عدمها لجهل الإنسان بها [٤١].

لا ينبغي أن يُستخرج من هذه القياسات والملاحظات أني أدعي استكشاف حقيقة الموجودات اللطيفة التي ذكرتها الآيات، فإن هذه اللطائف فوق ما ذكرت من الصور والاحتمالات، وفي ماهية لا تحيط بها دائرة العلوم المكشوفة والمدونة. وليس للقدرة الإلهية والطبيعة حد ولا نهاية.

وإنما قصدت بهذه المسرودات إظهار أن التصدي لإنكارها بدعوى عدم قبول العلم لها- ما هو إلا جهل محض.

٣- ورُسُلِه

والاعتقاد بالأنبياء العظام ركن من أركان الإيمان، وشرط من شروطه الأصلية. وليس ما ينافي العقل في اصطفاء بارئ الكون بعض وسطاء من بني آدم، لإرشاد أبناء جنسهم إلى طريق الحق والهداية، مع بعض وسائط لطيفة، لتأمين نظام العالم.

يقول المعترضون على هذا: «كيف يُعني الله سبحانه مع قدرته وعظمته، بخير نوع البشر وشرهم، وهم يحيون حياة أدق الأحياء، على كرة لا تزيد

على حبة رمل بالقياس إلى الكائنات، فيرسل إليهم رسلاً من أنفسهم، دون أن يهديهم إلى طريق الحق بنفحة من الإلهام؟ [٤٢]».

ويمكن الرد على هذا الاعتراض في الوهلة الأولى بالآية الكريمة: «لا يُسئل عما يفعل». ودعوى النفوذ إلى الحِكم الإلهية لخالق الكون الذي نعجز عن إدراك سر ذاته- مردود منطقاً. أما إثبات هذه المسألة عقلاً، فإن الله خالق السكون قد منح كل مخلوق طبعاً وجبلة واستعداداً خاصاً. وكما أن المخلوقات يمتاز بعضها عن بعض، فإن لكل فرد ولكل شخص من نوع واحد ميزة ورجاحة على سائر الأفراد. وهذه الكيفية من الأمور الظاهرة ومن الحقائق التي أجمع عليها العقل والنقل. ومن جهة أخرى، إن الخليقة تابعة لقانون أصلي شامل، كما أن سير العوامل ودوامه وتسلسله، وامتداد نوع الإنسان وتطوره- تابع لقواعد خاصة ناشئة من ذلك القانون. ومن مستلزمات هذا القانون أن حياة ذوي الأرواح ورفاهيتها على ظهر الكرة الأرضية، قائمة على إزهاق حياة المخلوقات الأخرى، وربما قامت على إزهاق أرواح أفراد من نوعها. فيهزم القوي الضعيف. ويهلكه في هذا القتال، إن هذه الحال- التي تبدو مكروهة في بادئ الأمر- هي مقتضى الطبيعة وسبب دوام الحياة. وقيام الحياة على الممات حقيقة ثبتت عند المفكرين بالتحقيق والحساب. وهذا هو النظام الطبيعي لهذه الدنيا التي هي في حكم ذرة في الكون.

لا نعلم بالطبع كيف تسير الحياة في سائر الكرات السماوية [٤٣]. ولكن النوع البشري أقوى مخلوق على ظهر الأرض بقوة ذكائه. وإذا أطلق

استعداده الفطري لتأمين حوائج حياته وملاذه النفسانية على حساب الغير، وشرع في تطبيقه بلا قيد ولا حد- فإنه يكون سبباً لكثير من الفساد والفتنة، وربما كان سبباً لانقراض نوعه!

هذا ولو حُدَّ هذا الاستعداد بحس فطري وطبيعي، فإنه يكون سلباً لإرادة الإنسان الجزئية، وهو من أشرف المخلوقات، وتنزيلاً له إلى منزلة سائر الحيوان. وبمثل هذه الأسباب تتحقق حاجة البشر إلى الشرع والشارع.

إن الفرق بين أنواع المخلوقات، والفرق بين أفراد النوع الواحد، وتفوق بعضها على بعض- واضح بين كما قلت سابقاً. وبناء على هذا يمكن أن يكون لبعض أشخاص التميز بين أبناء نوعهم بقوة ملكاتهم العقلية، ورقة إحساسهم، وقد بلغوا مكانة ممتازة في طريق التطور البشري- استعدادٌ للتأثر بالقوى الخفية والتلقي منها، أو بالتعبير الديني للوحي والإلهام. فهؤلاء الخواص ظهروا في مختلف عصور تاريخ البشر، وكانوا دليلهم إلى طريق الرشد والهداية.

***

ويمكن أن يوجه المعترضون لهذا الرأي هذا السؤال: «هل كان هؤلاء المرسلون صادقين في دعوى إرسالهم من الله؟».

إن هذا الاعتراض يفقد قوته بعد التصديق والتسليم وجداناً بإمكان البعث من الله، وإصابة هؤلاء الرسل الكرام في إرشاداتهم، وثبوت فائدتها في الدنيا والآخرة، ومع ذلك فالرأي الآتي خليق بالتأمل:

يعترف معظم الفلاسفة والحكماء الذين بحثوا في الأحداث العظيمة الكونية والأحوال النفسية البشرية بأن الأفكار التي كثيراً ما تخطر على بال الناس ناشئة من إحساس طبيعي، وأنها إن لم تكن حقيقة محضة، فهي مستندة على أساس صحيح على كل حال. والحق أن فكرة الرسالة المعنوية كهذه تأتي إلى بعض أشخاص قد تعلقت قلوبهم بآمال خاصة، وانحصرت أذهانهم وأفكارهم فيها، واقترنت مساعيهم بالتوفيق، وهم في المرتبة الثانية أو الثالثة من عظماء الخليقة، الذين اعترفت برسالاتهم جماعات بشرية عظيمة. فإسكندر وقيصر وأوغُست من عظماء التاريخ- كانوا منهم، كما ثبت من مذكرات نابليون، ذهابه إلى هذا الرأي بعد موقعة «لودي». ولما كان هؤلاء وأمثالهم من الساعين خلف آمال دنيوية فليُحمل ادعاؤهم على مقاصد خاصة، وليُحمل مقاصد بعضهم على داء العظمة، ولكن من المشهور المتواتر أن سقراط كذلك كان مقتنعاً برسالته المعنوية، وتشرُّفه بالتلقي والإلهام. وقد ثبت من مناقبه ومؤلفاته براءته من الأغراض الدنيوية ومقاصدها. ومن أكابر الحكماء المتأخرين هربرت سپنسر، ومساعيه شاهد عدل على خلوص نيته ونزاهة نفسه؛ ذكر هذا الحكيم في أواخر بحثه الفلسفي المسمى فوق الأدراك Inconnaissable، تأييداً لفكرة ضرورة الجهر بما يطرأ على مفكرة

المرء من عقيدة، وقال: «يجب على المرء أن يَعُدَّ نفسه إحدى الوسائط غير المحدودة للسبب الخفي، وأن يعلم أن ما حدث فيه من العقيدة هي أثر تلقينه، ويجب أن يعد حصول هذه الفكرة والعقيدة عنده سبباً كافياً لإظهارها ونشرها. ثم قال بعده بأسطر: «كما ينبغي للإنسان الكامل ألا يستصغر ما يعتقده، بل ينبغي له أن يُظهر بلا تحرز ما يرى من الحقيقة العُلوية. وبهذه الطريقة- مهما كانت النتيجة- يكون قد قام بواجبه في العالم. إن حصل التغيير المنشود، فهو المطلوب، وإن لم يحصل فهذا الشروع نفسه مفيد».

يُستدل من هذه العبارات أن سپنسر يعترف بأن الناس يمكن أن يكونوا وسطاء لسبب خفي، أو للمراد الإلهي كما نعتقد، وأنهم يحصلون على عقائد بتلقين غيبي يُكلَّفون نشرها، أو بعبارة أصح أن سپنسر يحس ذلك في نفسه. إن كون الإنسان موضعاً للتلقين الغيبي أحياناً، صار من الأمور المثبتة بالتحقيقات الأخيرة، أو كاد. فإني أوصي بقراءة كتاب «المجهول inconnu» لكميل فلاماريون، للاستنارة في هذا الشأن. وعلى هذا لا محل لاستبعاد كون الأنبياء العظام مظاهر للوحي والإلهام بأوضح صور وتأثير[٤٤].

كذلك رأى جوته- الشاعر الألماني الشهير- أن استلهام الأدباء بعض المصطفين من الناس- أدنى إلى الحكمة من تلقي الإلهام من الله بلا واسطة.

فليتصور إنسان يحس في نفسه رسالة غيبية، فيشرع في إبلاغها لجمهور يكاد ينازعهم منفرداً، وينتهي إلى أن قوماً جاهلين متمسكين بعقائدهم أشد تمسك- ينقادون لقوله. لا يجمعهم حوله بإغرائهم بالمنافع الشخصية، بل يحرمانهم من كثير من المنافع والملاذ النفسانية. ولا يكتفي بعدم قصده إلى منفعة دنيوية، بل يُظهر الاستغناء إلى حد حرمان أولاده ميراثه الضئيل. ثم ينشر بسرعة العقيدة التي يلقِّها ويعممها في الدنيا في زمن قليل، ويضمن استمرارها ودوامها قروناً طويلة. إن عدم رؤية أمر خارق وقوة إعجاز في شخص كهذا- خليق أن يحمل على عمى البصيرة.

سيرة النبي محمد عليه السلام:

ليست مناقب الأنبياء العظام معلومة تاريخياً، ومسجلة بالتفصيل. وإذ أن كل حالة من أحوال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وسيرته مسجلة مضبوطة، فإني أبادر بتمتيع الأذهان بسيرته النبوية، لإيضاح الدعوى.

كانت قبيلة قريش التي ينتمي إليها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم منتهية إلى إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، وممتازة بين القبائل العربية، وذات مكانةٍ عظيمة؛ لاختصاصها بسدانة الكعبة المعظمة، التي يجلها العرب منذ القدم، وحمايتها. ولما كان الرسول من نسل بني هاشم المختصين بسقاية الماء وعمارة المسجد الحرام، وحفيد عبد المطلب الذي حاز رياسة القبيلة كلها مدة من الزمن- كان شريفاً من كل الوجوه، إلا أنه كان فقيراً، ليتمه من أبيه قبل ولادته، ومن أمه في سن صغيرة،

وأميا. قد مضت طفولته عند مرضعته في الصحراء، ومضت حياته حتى البعثة في مكة، وقام بأربع رحلات: إحداها إلى يثرب (المدينة المنورة)، والأخرى إلى بُصرى بالشام، والثالثة إلى دمشق الشام، والرابعة إلى اليمن. اثنتان منها في سنه الصغيرة، والأخيرة في السادسة والعشرين من عمره، أي قبل أربعة عشر عاماً من بعثته. ولما كانت ملاقاته الراهب بحيرا في سفرته الأولى إلى الشام في رُفقة عمه أبي طالب، وهو في الثالثة عشر من عمره، فلا يحتمل اقتباسه منه. وقد اشتهر منذ صباه بالنزاهة وحُسن الخُلق والوقار والاستقامة، حتى عُرف بين العرب بالأمين.

ولما بلغ الأربعين من عمره، قام ضد قومه وقبيلته، بدعوى أنه مرسل من الله سبحانه وتعالى، فأعلن بطلان عقائدهم، ودعاهم إلى الدين الحق.

لا يجوز عقلاً ومنطقاً أن يغير رجل فجأة مسلك الأمانة والاستقامة الذي عرف به واشتهر حتى الأربعين من عمره، ويسلك طريق التزوير!

يمكن أن يُعد النبي أسعد رجل في قبيلته حتى قيامه بهذه الدعوة. فهو من أشرف أُسر قريش، وأحب الناس إلى القلوب، لحسن خلقه وأمانته، وثري بفضل زوجته الكريمة، وذو عزة ورفعة برياسة عمه أبي طالب. وما إن قام بدعوى الرسالة حتى انقلبت عليه قبيلته كلها، بل أحد أعمامه أيضاً (أبو لهب). استُعمل معه كل أنواع الإيذاء والجفاء والتحقير والتهديد، ووُعِد في خلال ذلك برياسة قريش، والزواج من أجمل بناتهم، وبتخصيص ثروة عظيمة، ولكن ما كان منه إلا الإباء، ورد ما وعد به من المنافع والنعيم، والتضحية بكل ما له من أسباب السعادة والرفاهية

السابقة، وتحمل المشاق والمحن، والتوكل على الله أمام كل تهديد، والثبات على تبليغ رسالته مصراً. ولا يمكن حمل هذه التضحية على أمل دنيوي خاص منتظر إذا انتهت الدعوة إلى نتيجة موفَّقة؛ لأن الحياة التي اختارها بعد الهجرة، وبعد أن تم انتصاره على قريش وحلفائهم وزاد المسلمون- وهو رئيسهم الطبيعي- ثروة وقوة ومنعة، فقيرة متواضعة إلى درجة لا يمكن مقارنتها بحياة العز والرفاهية التي عاشها قبل البعثة بمنزل خديجة. فأثاث بيته وفرشه أدوات من قبيل الصحون والجرار، وقطع الحصر، وأغلب طعامه تمر ودقيق الشعير. وفضلاً عن قيامه بشئونه وشئون بيته كان من عاداته المألوفة معاونته الشيوخ والعاجزين من جيرانه، وإيصال حاجاتهم إلى منازلهم حاملاً على ظهره. تلكم هي الحصة من المنافع التي اختص بها نفسه من الانتصار الذي وفق له بعد تلك المحن والمشاق، والرياسة التي ظفر بها! (٤٥)

قال الشاعر التركي عبد الحميد ضيا باشا:

«كان ذلك الأمير سلطان الكونين، يستوي عنده الموجود والمعدوم

لقد خضعت لأمره الممالك، ولم يكن لثلاثة من القمصان مالك؛

كان يمضي معظم أوقاته جائعاً، بينما راياته تخفق مظفرة.

قضى معظم وقته مديناً، ولما توفى وُجد درعه رهيناً.

كان يؤثر الفاقة ويفتخر بالفقر.

لم يمل ذلك الطائر القدسي العش إلى جيف هذه الدنيا!».

هل يُبحث عن دليل خير من هذا لكمال إيمان هذا الرجل؟!

كانت زوجته خديجة الكبرى رضي الله عنها أوَّل من أجاب دعوته من حرائر النساء، ثم أجاب دعوته أبو بكر من الرجال الأحرار، وعلي بن أبي طالب ابن عمه من الصبيان، وزيد بن حارثة من المعتقين رضي الله عنهم. ثم دخل عثمان وبعض عظماء قريش في الدين الحق، إلا أن هؤلاء الأخيرين هاجروا من وطنهم، عاجزين عن تحمل اضطهاد القبيلة؛ فهاجر معظمهم إلى الحبشة، وبعضهم إلى يثرب- بلد أم عبد المطلب جد الرسول- تاركين وطنهم وبيوتهم وأموالهم، مضحين بكل ما ملكت أيديهم في سبيل الدين. وحُرم على ميراث أبيه أبي طالب. ولكن لم يقدر على انتزاع هذا الشاب الشجاع عن عقيدته ونبيه لا هذا الحرمان ولا الأخطاء الكثيرة التي تعرض لها. وترك أبو بكر- وهو رجل ثري- داره ووطنه، وأنفق ثروته وأمواله في سبيل الدين. وأما الأنصار، فلم يكتفوا بإيواء المهاجرين وإطعامهم مكرمين فحسب، بل اقتسموا أموالهم بينهم وبين من لجئوا إليهم ضيوفاً، وقاوموا مستميتين هجمات جزيرة العرب كلها وخُدع اليهود، وجاهدوا في سبيل الدفاع عن المهاجرين. إن هذا البذل العظيم للنفس والنفيس دليل على قوة التلقين، ولا تنشأ هذه القوة إلا من العقيدة والإيمان الكاملين، لأن فكرة غير معتمد عليها باطمئنان- لا يمكن تلقينها الغير تلقيناً أساسياً كهذا بدون إغراء بعوض دنيوي[٤٦].

ظل الرسول الأكرم ثلاثة عشر عاماً بمكة بعد البعثة، متحملاً أنواع التهلكة، صابراً على الظلم مع عدد من أصحابه الصادقين الأوفياء، برغم مهاجرة معظم أصحابه. إن جهالة العرب وتعصبهم، وتمسكهم الشديد بأصنامهم، وانتقال السلطة بعد موت أبي طالب إلى بني أمية الذين ينظرون إلى منافع مادية من عبادة الأصنام كل هذا لم يستطيعوا إيقاع أي ضرر بالنبي في هذا النزاع العديم النظير. وقد حدثت الهجرة إلى المدينة في أحسن الأوقات. ففي أقل من عشرة أعوام دخلت جزيرة العرب كلها في الإسلام. ثم لم يمض خمسون سنة حتى دخل شمال إفريقية وسورية وإيران وما وراء النهر، وأكبر قسم من آسيا المتمدنة حتى بلاد كاشغر في حوزة الإسلام. وبعد ثلاثة عشر قرناً تؤمن بما بلّغه من الشريعة والدين- أمة يزيد عددها على ثلاثمائة مليون نسمة.

ويبدو لي أن ظهور رجل أمي من بلد بعيد بجزيرة العرب وانتصاره هذا، محروماً في الظاهر كل معين وظهير- هو بذاته معجزة. ولا جرم أن الإتيان بجملة من العقائد والمبادئ الأخلاقية أُدرِك صدقها عقلاً وعلماً بعد ثلاثة عشر قرنا، على حين كانت البيئة كلها منغمسة في ظنون سخيفة، واعتقادات باطلة، وتعميم تلك المبادئ- هو أمر خارج عن الطاقة البشرية.

ظهر مئات من الفلاسفة والحكماء في عالم المدنية في الأزمنة الأخيرة. وفي الإمكان الوصول إلى الحقيقة وإثبات النظرية الموضوعة بطرق أسهل، لتوافر كثير من وسائل العلم وضروب من وسائل النشر

والإذاعة، ومع ذلك من منهم ترك خلفه أمة؟ وحُكم أي فلسفة استطلاع الدوام. كنت أتلقى الفلسفة في أيام شبابي، فقرأت في ديباجة مجلة بالفرنسية هذه العبارة: «يتعرض المؤلف الذي يسمى كتابه بالفلسفة لهذا السؤال: عن أية فلسفة تتحدث، أعن فلسفة الأمس، أم عن فلسفة اليوم؟ أعن الفلسفة التي ماتت اليوم، أم عن التي ستموت غداً؟». هكذا جميع كتب الفلاسفة الذين يبنون فروضهم ونظرياتهم على مكتشفات العلم والمنطق وقياساته- سريعة الزوال باعترافهم هم أنفسهم! فهل يمكن أن تكون قداسة الأنبياء العظام الذين قدروا على نشر شرائعهم وتمكينها إلى هذا الحد- محلا للتردد والاعتراض؟!

الاعتراض على النبوة المحمدية

يمكن أن يعترض على النبوة المحمدية بالاعتراض الآتي: «إن الدين الإسلامي يأمر بتصديق الأنبياء العظام إطلاقاً، ويصدق بنبوة عيسى عليه السلام؛ فهو إذن معترف بأن النصرانية دين حق. ولكن لم يكد هذا الدين يظهر، حتى نشأ اختلاف في أصول كتابه؛ فضاع معنى، ثم لم يمض غير زمن وجيز حتى ذهبت أمته إلى أن المسيح ابن الله، وإلى ربوبيته- حاشا لله- على حين أن ظهور كتاب مقدس وضياعه مغاير للعقل والمنطق، كما أن ربوبية عيسى عليه السلام منافية لأصل العقيدة الإسلامية. وإذا كانت العقيدة المحمدية صحيحة، فتكون المسيحية شبيهة بشهاب أفل مع طلوعه!».

والحق أن العقيدة الإسلامية تنكر بتاتاً ادعاء المسيح للألوهية. إن ورد التعبير بكلمة الأب عن الله، فإنها استعملت على ما نعتقد مجازاً بمعنى الرب والحامي والرحيم- كما في اللغات السامية. وفي الأناجيل المتداولة بين الناس اليوم آيات كثيرة تخاطب الناس بكلمة «أبوكم الذي في السماء». وهذا دليل على أن عيسى عليه السلام لم يقصد بذلك أباه، بل يثبت استعمال كلمة الأب بمعنى الرب. وأما حدوث التحريف في الأسس الإنجيلية بعد زمن وجيز [٤٧] فلعله من مقتضيات العصر. فقد كان كل الدنيا تقريباً قائلة بتعدد الآلهة في زمان بعثة عيسى عليه السلام. وبلغت العقيدة البشرية الأساسية الفطرية التي بدأت بالبحث عن سر الخليقة وتبجيلها- إلى هذه الحال من تراكم الأفكار والظنون الملوثة بالتحريف على التحريف. والشعب الإسرائيلي هو الشعب الموحد الوحيد في ذلك العهد، وكانوا محتقرين من الشعوب المجاورة، ومغضوباً عليهم. ولا جرم أن العقائد الصحيحة والدين الحق الذي بلغه موسى عليه السلام قد مُن بتحريف لضياع التوراة، وطول الزمن، حتى بلغ بهم الضلال إلى أن ذهب بعضهم إلى تأليه عزير. فكان التوحيد الذي علّمه الإسلام بعد ذلك بخمسة قرون أو ستة، والذي صدقته الفلسفة الحالية وسلمت به، يمكن- حسب البشرية- أن يكون عسيراً على الأفكار العامة الفاسدة إذ ذاك أن تقبله فجأة. الحقيقة واحدة لا تتغير، إلا أن فهم البشر لها وإيمانهم بها يسير سيراً تدريجياً نحو غاية الإصلاح والتطور، كما أن إصلاح الأخطاء التي حدثت أخيراً وإزالتها تابع لقاعدة التدرج واستعداد البيئة. فإذا قيل إن ضياع الإنجيل وانحراف العقيدة الخالصة المسيحية عن

طريق الحق، كان مبنياً على حكمة سهولة انتشار النصرانية، فلا يكون ادعاءً بعيداً عن العقل والنقل كثيراً [٤٨]. إن كثيراً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تدل على أن الأديان قد وُضعت لإرشاد بني البشر إلى السلم والصلاح ومحاسن الأخلاق وإلى طريق الحق. فإذا بُحث في التاريخ فيُحكم بأن النصرانية أحدثت انقلاباً كانت البشرية في حاجة إليه في ذلك الوقت، مهما كانت مدة دوام العقيدة الخالصة.

فلننظر إلى الإمبراطورية الرومانية- وهي من الدول المسيطرة على القسم الأعظم من الكرة الأرضية حين ظهور النصرانية - التي ملأت أباطرتها أمثال نيرون وهليوجابال الدنيا ظلماً وسفاهة، والدولة الفارسية التي أدارها أمثال جودرز وهرمز وفرهاد الذين بلغوا أغراضهم بسمل عيون آبائهم وإخوتهم وأولادهم غير مكتفين بظلم الناس! فهل كانت البشرية تستطيع المثابرة على الخضوع لهم ولحكوماتهم؟ فهكذا ظهرت النصرانية في زمن فسدت فيه البشرية، ومُنيت بسوء الخلق، وانتشرت رويداً في الغرب وأوروبا. والواقع أن دماء غزيرة أريقت في هذه السبيل أولاً وآخراً؛ وذهب كثير من الأبرياء من دعاة العقيدة الجديدة ضحية في سبيل أفكارهم وإيمانهم، على أيدى بعض الظالمين والرهبان، ولكن ظهرت في الدنيا رويداً رويداً صفوة خلقية جديدة نسبياً، ووُضِعَت أسس للمدنية الحالية بين الموجات المتناقضة. ومن ضروريات القانون الطبيعي لهذه الدنيا أن يتم بقاء البشرية وتطورها بالصعود والهبوط، والسلم

والحرب، والتضجر والانبساط، والسرور والاضطراب؛ وخلاصة الكلام بالتضاد والانقلاب.

وتعرض الإسلام لطعنات الملحدين، لاعترافه بولادة المسيح بدون أب، فهو يبين أن روح عيسى نُفِخت في مريم بوساطة ملك. وإذا نظرنا إلى نظريات الحكماء في كيفية ورود الحياة من سائر العوالم إلى الأرض، وآمنا بالله والملائكة، قانعين بما يُسرد من الأدلة في ذلك في بحوثهم الخاصة، فإن نفخ الروح بواسطة لطيفة يكون على كل حال أقرب إلى العقل مما يفرضونه من الرحلة الجوية لخميرة الحياة. ووقوع الشذوذ في قانون الخليقة معروف كما سنبينه. فلذا ينبغي ألا يكون الاعتراف بحالة شاذة كهذا لرجل قدسي أحدث في العالم انقلاباً خارقاً- مزعجاً إلى حد إنكار أصل ديني.

ومع ذلك فإن الاعتراض على خلط الأديان بالخرافات حتى تصل إلى تأليه الأنبياء، أو مقارنتهم بالألوهية باختراع مناقب لهم وحكايات تدور حولهم- حق وواجب.

إن هذه العقائد الفاسدة القريبة من الشرك، أو هي الشرك بعينه، لتفتح باباً تلج منه الشكوك والاعتراضات، فتنال من القداسة الدينية في نظر البسطاء. ومع ذلك أقول هنا جملة معترضة؛ إنه إذا كان مثل هذا الإدراك والتفهيم حُمقاً وضلالاً، فإن الإيمان بهذه الأمور بلا تحقيق على أنها عقائد دينية، والتصدي لإنكار حقيقة دينية- ولاسيما الإسلام- جهل وقلة ملاحظة مثله.

الخوارق المعادة:

ولما كان طبيعياً أن يترك هؤلاء الأنبياء آثاراً عميقة في ضمائر معاصريهم، وأن تنتقل هذه الآثار إلى أخلاقهم مبالغاً فيها، فإن أفكار البشر ظلت قروناً جائشة بسيرهم ومناقبهم. فكما أن أمة عيسى عليه السلام ألهته بعد رفعه إلى السماء، فإن عمر رضي الله عنه الذي تقوم أفعاله برهاناً على متانته وفضله وعرفانه- لما سمع خبر وفاة الرسول اهتاج إلى درجة تهديد من أخبر بموته بالقتل، وأراد الذهاب إلى عروجه إلى السماء، ولم يمنع الفساد سوى وصول أبي بكر الصديق وتلاوته الآية الكريمة: «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم».

ظلت عظمة محمد صلى الله عليه وسلم ورفعةُ فطرته شاغلة أذهان البشر، وظهر كذلك تأثير الاستعداد الشعري وقوة المخيلة البشرية الجبلية، فأراد بعض الصوفية استخراج معنى عشق الله لنبيه من صفة حبيب الله. وفي القرآن الكريم آيات كثيرة كقوله تعالى «إن الله يحب المحسنين» و«إن الله لا يحب المعتدين» كما تدور في أفواه العرب الحكم المعروفة «الكاسب حبيب الله». ويفهم من هذا عدم لزوم أخذ كلمة «حبيب» بمعنى العاشق.

غير أن الناس لم يكتفوا بهذا القدر، بل اختلقوا كلمة «لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك» باسم الحديث القدسي، فافتروا بهذا على الله وعلى حبيبه المتواضع وأدخلوا في الإسلام عقيدة نصرانية في عيسى عليه السلام.

يجب التصديق والتسليم روحاً وقلباً بقداسة نبينا وعظمته، وإجلال ذاته ومنزلته بالقياس إلى بني البشر وكافة المخلوقات، ولكن كل قول وكل تصور يمكن أن يتضمن مقارنته بالألوهية فباطل.

دع ما ادعته النصارى في نبيهم واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

وهذه الحقيقة ثابت بالآيات الكريمة والأحاديث النبوية.

إن الدين الإسلامي عرف الله سبحانه منذ ثلاثمائة وألف عام، بما يتفق مع علم اليوم وفلسفته؛ فالله واحد قادر حكيم أبدي أزلي متعال، ومنزه عن إحاطة العقول به. وأما النبي فبشر مرسل من الله لإرشاد الناس وهدايتهم. فقد أعلم خير البشر هذه الحقيقة بلسان القرآن حيث قال: «لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم» و«وما أنا إلا بشر مثلكم يوحى إلي»، وبأحاديثه النبوية التي تحدث بها بتواضع تام. والأنبياء مهما علا قدرهم فإن نسبتهم إلى الربوبية كنسبة وجود معين محدود لما لا يتناهى. فالله البارئ المطلق لا يمكن مقارنته بمخلوق أو بموجود مهما علا وتقدس. إن الأنبياء مكلفون رسالة من الله، وليس ما يخالف العقل في تصديق ذلك. ولكن لا تؤدي هذه الوظيفة المعنوية والرسالة الألوهية إلى تصور تبليغ الأوامر الإلهية وجهاً لوجه، كما يتصوره بعض الجهال. وإنما تُلقَى هذه الرسالة المعنوية إلى أذهانهم وقلوبهم، بوسائط لطيفة، فيقومون بتبليغها بأفعال وحركات بشرية.

ولما كان أولو العزم من الرسل يدعون الناس إلى الطريق المستقيم، مبشرين ومنذرين، لا طوعاً ولا كرهاً بقوى مادية ودنيوية، قاهرة أو جاذبة، فإن الأديان المنزلة تمس حقيقة الخِلقة وعالم الغيب. وليس في طاقة طائر الفكر البشري التعمق في عالم الإطلاق والسرمدية واللاتناهي. ولا يقدر العقل الإنساني على التيقن من الحقائق اللدنية كما ينبغي، فلذا لا يمكن إدراك مؤدَّى التبليغات المعنوية عقلاً إدراكاً تاماً- ولو أنه يلوح لأذهان بعض العارفين- وبهذا يزول التضاد والاختلاف، وهما من طبيعة عالمنا هذا، ويكون عالماً منطقياً.

إذا بُحثت المسائلُ الدينية من نقطة النظر هذه زال كثير من الشكوك والظنون، ويتجلى في القلوب الرفق والتسامح وتُقبَل الخلافات الفرعية- ما عدا الشرك- بصدور رحبة، فتتم أمنية السلم والأمن، وهما غاية الإسلام.

٤- وكُتُبِه

والاعتقاد بالكتب السماوية ركن من أركان الإيمان، ومن شرائطه الأصلية. والكتب السماوية تحتوي على ما بلغه الأنبياء العظام من الأوامر إلى أممهم عن الله.

ومن معتقداتنا أيضا ضياع كتب الأمم السالفة، أو تحريفها بمرور الزمن وتقلبات الأحداث، وبقاء القرآن الكريم العظيم الشأن محفوظاً، كما صدر عن الفم النبوي، وهو حقيقة ثابتة تاريخياً.

والقرآن المجيد أثر وحي وتلقين معجز وقع لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، لتنفيذ الأوامر الإلهية.

ويقع الوحي- كما ورد في الخبر- بطرق مختلفة؛ فإما ينزل مرة واحدة، كما في الألواح العشرة للتوراة، وإما في الرؤيا أو في حال اليقظة متتالياً. وقد نزل القرآن الكريم- وأكثره في اليقظة- نزولاً تدريجياً في ثلاث وعشرين سنة. وكان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يبلِّغ- نظراً إلى إفادته- بواسطة مَلَك متمثل في صورة إنسان (انظر بحث الملائكة).

بلغت البلاغة العربية أوْجَها قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، وكانت مكة مجمع الفصحاء والشعراء؛ يجتمع بسوق عكاظ بجوار مكة أرباب الفضل والأدب، من أطراف جزيرة العرب، فينشدون قصائدهم، ويعلق منها ما حاز استحسان الجميع بجدران الكعبة. ولما بُعث محمد، وقد ثبتت أميته تاريخياً، وبلغ رسالته، استُقْبِلت فصاحة الآيات القرآنية بحيرة واندهاش، وأنزلت المعلقات من جدران الكعبة، وآمن لبيد- وهو ناظم إحدى المعلقات- بالرسول، مبهوتاً بفصاحة القرآن. وحاول المعترضون بأن يأتوا بمثلها فعجزوا. إنهم نظموا جملة «القتل أنفى للقتل» نظيرة للآية الكريمة «ولكم في القصاص حياة»، إلا أن رجحان هذه الآية المؤلفة من ثلاث كلمات على تلك الجملة لفظاً ومعنى ومن وجوه كثيرة- مسلّم به عند جميع أدباء وعلماء الأمم التي مرت منذ نزولها حتى اليوم.

حاولت بعض جماعات نصرانية- ولا تزال تحاول حتى اليوم- الإتيان بمثل ما جاء به القرآن، وألف بعض أعداء الدين مقالاً بعنوان «سورة النورين» في فضل الأسرة العلوية الطاهرة وحقوقها.

لما رفع الجيش العثماني الذي أُرسل لتسكين وقمع الثورة التي نشبت في اليمن، بعد الدستور العثماني- الحصار عن صنعاء، وأذيع الشروع في إنشاء ائتلاف أساسي، أراد وراق- قال إنه دانماركي- الإقامة بالحُديّدة، وأن يشتغل ببيع بعض كتب دينية وتوزيعها. كان غرضه واضحاً جد الوضوح، فلذا حيل بينه وبين نشاطه، برغم ادعاء القنصل الإنجليزي حمايته له، إلا أن نسخة من «الوحي»- وهو من الكتب التي جاء بها- أُحضرت إلى صنعاء.

ينشأ بين الزيديين علماء عظام أفاضل، ولكنهم برغم صلابتهم الدينية لا يعنون بحفظ القرآن. ففي ذات يوم دُعِي السيد القاضي العمري من أكابر علماء اليمن إلى مركز القيادة العامة، وتُلِيَت أمامه «سورة النورين» من كتاب «الوحي» جهراً على أصول تلاوة القرآن. وما قُرئ سطر واحد حتى سد هذا العلامة أذنيه مستنفراً صائحاً: «هذا ما قرآن!». إن الواقفين على دقائق لسان العرب العارفين الذوق القرآني، يسلمون باستحالة الإتيان بمثل آية منها.

فإذا تُلي القرآن جاش ذوو الإحساس متأثرين بلفظه ومعناه، لأنهم يحسون قدسية هذا النظم الجليل، والكلام البليغ، الذي ينحصر نوعه في ذاته، والذي هو ليس بنثر خالص، مع أنه ليس بشعر موزون.

يعترف أكثر مستشرقي الغرب بفصاحة القرآن ويقدرونها، ولا يندر فيهم من يدرك معاني القرآن والفضائل الإسلامية ويجلها. ففي الفصل السادس من كتاب «ما هو القرآن» للأديب الفاضل عمر رضا معلومات نافعة في هذا الباب.

رأى جوته في محمد:

وألخص هنا علاوة على ذلك بحث «محمد» من كتاب «ديوان الشرقي للمؤلف الغربي» [الكتاب ألماني، وهذا العنوان مكتوب على ظهره بالحروف العربية] لجوته الكاتب الألماني المعروف بأنه أكبر شعراء أوربا وفلاسفتها. وصف محمد بأنه «رجل خارق للعادة، وأنه نبي، وليس بشاعر، ولم يتحدث في كتابه عن موضوعات مداعبة مسامع القراء وأذواقهم كما يفعل الشعراء، وإنما حصر كلامه في غاية مقدسة جعلها نصب فكره، وأن زبدة القرآن هي الآيات السبع الأولى من سورة البقرة وقد ترجمها، وأن الغاية المتبعة من الوعد والوعيد اللذين يتكرران دائماً واحدة في القرآن كله، وهذا التكرار إن كان يبدو في بادئ الأمر مملاً، إلا أن بلاغة القرآن تنتهي إلى انجذاب الإنسان إليها وبهته، ثم إلى تقديسه إياها». وقال في كلامه عن أسلوب القرآن: «إنه واضح وحاسم وعظيم، مناسب لموضوع الكتاب ومفيد، وبعضه عال حقاً. فإذا ووزِنَت الملاحظات المتناقضة فلن يستغرب أحد من التأثير العظيم الذي يؤثره هذا الكتاب». تكلم جوته مختصراً عما دار حول القرآن من المجادلات، ثم قال مدافعاً عنه إلى حد ما: «إن هذا الكتاب سيحافظ على تأثيره إلى

الأبد، لأن تعاليمه عملية مطابقة للحاجات الفكرية لقوم معتزين بتقاليدهم، متمسكين بعاداتهم القديمة». ثم قارن القرآن بالأدب الفارسي الذي كان رائجاً قبل البعثة المحمدية، فنزهه إلى حد التناقض مع موضوعات ذلك الأدب المتهتكة، وذكر بالحمد والثناء أن القرآن قد قلب العهد العتيق إلى سير الأنبياء، وجعل قصصه الأسطورية في قالب مفيد. وأما قصص نوح وإبراهيم ويوسف عليهم السلام فيراها جوته معجزة!

إن شهادة رجل بعيد عن البيئة التي نزل فيها القرآن المجيد، غير واقف على دقائق لغة العرب، ومحروم ما فيها من الذوق الأدبي- بهذا الإجلال للقرآن لتُعد برهاناً ساطعاً لعظمته.

نزول القرآن

من المسلمات التاريخية أن محمداً كان أمياً ولم يفارق مكة منذ أعوام قبل بعثته، [وكان يعتكف في أوقات معينة من كل سنة في غار حراء بجوار مكة]. وكان أبوبكر أول من اقتدى به من الرجال، وهو يكاد يكون من سنه. ولم يكن مشهوراً بالفصاحة والبلاغة. وأما عليّ فكان لا يزال صبيا (في الثانية عشرة من عمره). وأما الذين أسلموا بعد ذلك فقد جذبت أغلبهم فصاحة القرآن وبلاغته وبراهينه المقنعة، ومنهم عمر رضي الله عنه المشهور بين العرب بالاستقامة وحدة الطبع.

نزل القرآن الكريم في ثلاث وعشرين سنة. وكانت حياة الرسول في هذه المدة عارية عن كل أنواع الأسرار الدنيوية. وإذا كان مستبعداً من

رجل أمي لم يشتهر بالشعر والإنشاء، بل لم يزاولها حتى الأربعين من عمره أن يأتي بمثل هذا الأثر البديع، فإن احتمال إنشائه سراً من قبل رجل آخر، ليس بأقل استبعاداً من الإتيان به.

ومن المتفق عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا الآيات القرآنية في بداية نزولها في حالتي الوجد والانجذاب. وهذا هو الفرق بين القرآن والحديث، ولا جرم أن بين أسلوبيهما فرقاً عظيماً. كما أن مشركي زمانه قالوا: «إنه معلم مجنون» فإن أعداء الدين يقولون حتى اليوم بأنه كان مصروعاً لهذا السبب، أي لتلاوته الآيات القرآنية للمرة الأولى في وجد وانجذاب. ولن يمكن اجتماع الجنون والحِكم والانتصارات التي وفِّق لها في حياته- في صعيد واحد. إن سُميت حالة الوجد التي كانت حين تبليغ الآيات- بالصرعة فقد ثبت طبياً تنقيص هذه العلة للذكاء[٤٩]. على حين أن الإتيان بمثل هذا الدين وجمع هذا القدر من الناس حوله متوقف على ذكاء غير عادي. وعكس ذلك تكون حالة خارقة للعادة وفوق الطبيعة. وخلاصة الكلام أننا إذا بحثنا في أية نقطة من نقط النظر تبين لنا تفوق الرسول صلى الله عليه وسلم على بني نوعه، وامتيازه عنهم، وإعجاز القرآن الكريم.

٥- واليوم الآخِر

والاعتقاد باليوم الآخر ركن من الإيمان. إن كان المراد من اليوم الآخر فناء البشر وسائر أقسام الكائنات فهذا ثابت عقلاً ونقلاً. لأن كافة المخلوقات حادثة بذاتها كما أنها فانية كذلك باعتبار أشكالها وظواهرها. ثم إن مُلك الخليقة دائم حتى النهاية، لأن أبدية الله ثابتة، وبما أن الخالقية من صفاته الثبوتية غير المنفكة فهي دائمة مستمرة. ولا ريب في أبدية المسبب الأول الذي ثبتت أزليته عقلاً كما ثبتت ديناً، ومتى اعترف بكون هذه الأبدية من الضروريات العقلية والمعتقدات الدينية فلا يمكن تصور مالك بلا ملك وخالق بلا مخلوق.

إذا كانت كرة كالقمر مثلا تحرم من القابلية للحياة، أو تنقلب سحابية نتيجة لتصادم فإن الحياة تظهر فى كرة أخرى فقدت حرارتها. ثم تتطور فى مكانها سحابية تصير مجموعة لشمس وتظهر في توابعها الحياة. وهكذا تدوم هذه السلسلة متكررة في طريق تطور غير متناه. إن كرات لا يحصرها عد قد تظهر بعد تريليونات وكتليونات من السنين وتكتسب طبيعة أخرى، وتظهر قبة السماء في غير صورتها الحالية. غير أنه يمكن أن تكون المخلوقات والموجودات دائمة مستمرة في مكان آخر في الفضاء اللانهائي [في حالة الجنة وجهنم مثلاً]، فالعقل والنقل متحدان في هذا.

أما يوم الحساب وهو قسم من اليوم الآخر، فليس بالطبع أمراً يستطيع العقل والعلم إثباته. إذ ليس عند القادمين إلى عالم الوجود ذكرى عن عالم الأرواح، ولا نبأ عن الراحلين! ومتى انعدم مدار الاستدلال عجز

البشر عن كشف المستقبل عقلاً. ولكني أرجع إلى ضمير كل امرئ فأقول: هل يوجد امرؤ لا يشتكي من بني نوعه، ولا يرجو العدالة لنفسه، أو لمن يراهم مظلومين من سائر الناس؟! وكذلك هل يوجد من يقتنع بتجلي عدالة تامة مطلقة في هذه الدنيا؟ وهل في استطاعة القوانين ومؤسسات الضبط والعدالة البشرية القيام بواجباتها تماما؟ وإذا أنعمنا النظر بأن لنا وجودُ عدل معنوي يحكم خفية في هذه الدنيا أيضاً. ولكن أما نرى فيه أيضا شذوذاً محيراً للعقول؟

فمثلا يئن مسببو الحرب العامة ومسئولوها الحقيقيون، أو الملايين من الذين أصبحوا جياعاً محتاجين، بينما يمضي أغنياء الحرب حياتهم في عز ورفاهية وسعادة، وإذا ماتوا على وثير الفراش دُفنوا في قبور ممتازة بين تهليل فريق من الغافلين، وينعم ورثة بعضهم بميراثهم المادي والمعنوي. أفلا يُنتظر- ولو في زمان ومكان آخر- عوض لأولئك الملايين من الضحايا الذين قتلوا في سبيل هؤلاء الأغنياء، ولذويهم وأقاربهم الباكين حيارى؟

فالبشرية المتأثرة الجائشة بمثل هذه الأسباب والملاحظات مؤمنة مذ عرفت نفسها بهذه العدالة الأخروية، مترقبة لها ومتعللة بها.

إن إحساساً واعتقاداً قد أجمع عليه كافة البشر في كافة القرون والبطون، وتأيد عقلاً ونقلاً- لا داعي لرده، وإنكاره من أساسه.

وإن وُجد امرؤ لا يشعر بهذا التأثر لضعف في إحساسه، أو لانقياد لعناده، أو لأنه لا يريد الشعور به، وينكر التبشير والإنذار، متبرئاً من مثل هذا التمني، فإنا لا نعدم كذلك أناساً يعدون أنفسهم نتيجة بعض هُويات غير مدرِكة، مجهولة الأصل عندهم أيضاً، فينزلون بالبشرية إلى درجة الحيوان، بل إلى دركة الجماد ويعتقدون الروح الإنساني «هواء يذهب في الهواء»! إلا أن الشاعرين بإنسانيتهم يعدونهم ممن وصفهم القرآن بقوله: «أولئك كالأنعام بل هم أضل» فلا يعيرون سفسطتهم وتعريضاتهم التفاتاً.

الجزاء الأخروي

ومع ذلك فقد وصفت المجازاة الأخروية في بعض الأديان في شكل جد غريب، وصُور الله في صورة من الشدة والحِدة يقشعر منها بدن رجل ميال للظلم بالفطرة. إذ أنه ليس موضوع هذا الكتاب معارضة سائر الأديان ومناقشتها، فلا أتصدى لتفصيلات هذا الشأن. والإسلام ليست فيه عقائد مغايرة للعقل والحكمة. ويفهم من الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة صراحة- أن رحمة الله واسعة محيطة بكل شيء، وسابقة على غضبه، وأن الله غني عن العالمين، أوامره ونواهيه موجهة إلى نفع عباده ومصلحتهم، وأنه يغفر الذنوب جميعاً إلا الشرك، وعلى شرط الإقرار بأركان الإيمان، وأن حقوق الغير يجب إحقاقها على كل حال، بأدائها أو بإرضاء أصحابها، وأن العذاب الأليم والانتقام إنما يتجلى في حقوق الناس، وأكثر الصفات تكراراً في القرآن الكريم هي الرحمن والرحيم، والتواب الغفور.

ذكر القرآن أنهار الجنة والحور العين التي بها، والجحيم وعذابها المهين. إن طريق الحس والإدراك في الحياة الدنيا يعوقان عن فهم كثير من الحقائق واللطائف، كما ذكرنا سابقاً. ولما كان جزاء المحسنين وعذاب المسيئين في عالم الألوهية قد رفع عنه ستار الجسمانية، عسير الفهم بكلام دنيوي، فقد اقتضت الحكمة تشبيهها بما في هذه الدنيا من ملاذ ونعم، وعذاب ونقم. وقد أيد هذا الرأي بالحديث الذي رواه ابن عباس: «ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء».

لقد أخبر القرآن بالآية الكريمة «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون» سورة السجدة الآية ١٧، والحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر»- أن الإنسان يعجز عن إدراك ما أخفي من النعم الإلهية جزاءً لأعماله الصالحة. كما بشرت الآية الكريمة بأن رضا الله أكبر من نعم الجنة وحظوظها في قوله تعالى: «ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم».

ولما كان خير جزاء الإنسان نيله لمآربه وآماله، فيُستنتج نيل الأكثرية من المؤمنين لما يتصور في الجنة من نعيم، وهم مع اتباعهم للأوامر والنواهي الإلهية لم يقدروا على التجرد من العلاقات الدنيوية، وارتحلوا عنها وعيونهم فيها، وأما من تكمل في حياته الدنيا، ونزع نفسه عن الآمال الشخصية، ووقف أفكاره وقواه لخدمة الإنسانية وسلامة وطنه، رابطاً قلبه بربه، فيصل إلى نعم لدنّية أعلى.

رأي المفكرين في التناسخ:

يذهب المفكرون القائلون بالتناسخ- كما ورد في مبحث آمنت بالله- إلى «أن كلاً من الجزاء والعقاب المعنويين يتعين بما ينال المرء في حياته المتعاقبة من الاعتلاء والانحطاط». ويتصور بعض الحكماء المنصفين في علم الهيئة إمكان انتقال الأرواح إلى السيارات والمجموعات الأخرى. إلا أن عقيدة التناسخ ليست في أساسها سوى فرضية خالصة. بما أن الذرات التي يتكون منها الجسم في تقلب مستمر من حال إلى حال، وتنقل من جسم إلى جسم، فمن الممكن أن تدخل الذرات المنفكة من جسم الميت متفرقة في بنية طفل أو مهر أو زهرة. غير أنه لم يوجد قط دليل أو أمارة على تكرر عودة روح ذي حياة وذاته إلى عالم الوجود بعد موته. ولم يعترف دين من الأديان المنزلة بفرضية التناسخ. ولما كان الإنسان- وهو أكمل الأحياء في الدنيا- لا يذكر حياة متقدمة على حياته، فإنه لا يقدر على إدراك ما ناله من الرفاهية والضجر، والعزة والذلة- في حايته الدنيا تقابل أي فعل من أفعاله الحسنة أو السيئة في حياته تلك. فجزاء أو عقاب كهذا غير معتمد على سبب معلوم وحكمة وجيهة- عبثٌ أو ذميم، من قبيل إكرام السمك الذي في البحر، أو أذية امرئ غيابياً دون أن يكون له علم بذلك- ولو كان مخطئا، فلن يستطيع مؤمن أن يسند نقصاً كهذا إلى أحكم الحاكمين المقدس. كذلك لا يقدر من له عقل وعلم أن يدرك مثل هذه الأحكام والمعاملات العديمة الفائدة باسم الحكمة والعدالة اللدنية.

ولا يجوز الثقة بأخبار فرضيات لا يمكن إثباتها بالحساب والتجربة، إلا على شرط مطابقتها للميول الوجدانية، والتفكر الفطري البشري.

أما الماديون فيعلنون إنكار الروح والوحي، وعدم فائدة فعل الخير ما دام لا يترتب عليه فائدة في الدنيا، ونجاة المسيء بلا عقاب. وهذه حالة ثقيلة على ضمير البشر، الذي يشعر كل فرد منه بحاجة إلى العدالة ويرجوها. ثم إنه بناءً على هذه النظرية يزول الحافز للناس إلى فعل الخير بلا عوض دنيوي، والمانع عن السيئات التي قد تختفي في ضمائرهم، والتي يُظن ارتكابها، فتشيع الأنانية والميل إلى الظلم والاغتصاب، وهذه حالة فكرية خليقة بإفساد الدنيا في زمن قليل.

يستنتج مما سبق من التفصيلات؛ أن هذه العقيدة- وهي مولودة الفلسفة المادية ووحدة الوجود- ضلال ومضرة من كل الوجوه، وأن التلقينات الدينية عن اليوم الآخر، والمحكمة الكبرى، ومحاسبة الناس على أعمالهم- موافقة للميول الوجدانية، والتفكرات الفطرية البشرية، ودافعة إلى الصلاح، مانعة عن الشر؛ فهي عين الحكمة ومحض الخير.

٦- وبالقَدَر خيرِه وشرِّه من الله تعالى

والاعتقاد بالقدر ركن من الإيمان عند أهل السُنّة. وأعتقد أن كل امرئ يفكر بعناية في صفحات حياته ويتأملها، يحس كونه خاضعاً لتصرف معنوي. يسعى رجل في عمل من الأعمال متوسلاً بضروب من التدابير، غير أنه كلما زاد سعياً زاد هدفه عنه بعداً. ثم يُفتح له باب الفرج بُيسر لم

يكن له في الحسبان. ويبتلى بالفقر والمسكنة رجل قد عرف بين الناس بالدراية والكفاية، ويعجز عن سبل النجاة. ويفوز ذو جهل وغباء بنعم ومراتب، وثروة ورواتب. فهل تحمل هذه الحالة، وهي تتكرر دائماً وتغلب التدبير والذكاء- على الصدفة وحدها؟!

إن امرأً باحثاً في حياته وحياة البيئة التي يعيش فيها بحثاً دقيقاً يفهم أن هذه الحال مع عدم خضوعها لنظام يمكن فهمه- ليست أثر صدفة محضة كذلك، فيحكم بضعفه أمام إرادة غيبية.

ومن جهة أخرى إن السعي والتدبير لابد منهما للحياة. ففي الناس من فاز بدولة بسبب تافه، كما أن منهم من أضاع ما في بيته من بُرغُلٍ وهو ذاهب إلى دمياط للحصول على الأرز. غير أن من لا يسعى على مخبز لشراء خبز منتظراً إياه من القدر- فلابد أن يموت جوعاً.

حدثت الاختلافات بين مفكري المسلمين من تظاهر هذين النقيضين. فأما الأغلبية من عظماء علماء المسلمين، فحلوا هذه المشكلة بأن المخلوقات والحادثات كلها تابعة للإرادة الكلية الإلهية، ومنقادة لها، ولكن الله منح الإنسان إرادة جزئية، لتكون له دليلاً يميز بها الخير من الشر، والحسن من القبيح.

وأما فريق منهم فقد وضع نصب عينه أمر مسئولية البشر المعنوية، وتصدى لإنكار القدر جملة، مدعياً بأن العبد خالق لفعله، وتعامى عن عجزه أمام ما يصادفه من العقبات في حياته، وتغافل عن الشكر لما ينال

من العون، ومال إلى طريق التكبر والاعتزال. وكان الباعث على انتحال هذا الرأي هو ظنهم بأنه لو كان في أفعال الإنسان حافز معنوي سِوى إرادته الذاتية، لكان الجزاء والعقاب الموعود بهما في الآخرة مغايراً للعدالة.

وقال فريق آخر: «كل شيء بيد القدرة الإلهية، والإنسان خاضع للمشيئة. وكافة أفعاله مقدرة ومكتوبة في اللوح المحفوظ منذ القدم»، فسلبوا الإنسان الإرادة الجزئية، ودفعوا البشرية إلى الاستسلام والعطل في هذه الدنيا، وأسندوا الظلم إلى الله العادل، إن لم يكن صراحة فضمناً، من أجل الجزاء الأخروي. وقد نشأ هذا الرأي من خشية الوقوع في الشراك، من تعارض الإرادة البشرية والمراد الإلهي، في حين أن البشر مجبول على خاصة تمييز الخير والشر، فهو مأجور أو مسئول عن أفعال الخير والشر في الدنيا والآخرة. ويمكن تشبيه الإرادة الجزئية البشرية بما يُعطي عامل من سلطة. فكما أن هذه السلطة لا تسقط حق الرئيس الأعلى، ولا تخل بشرفه وسلطانه، فإن معاقبة من يسيء استعمال هذه السلطة لا تخالف العدالة كذلك.

وعبارة «الأعمال مكتوبة في اللوح المحفوظ»: تدل على كون العلم الإلهي لاحقا، ولا يجوز تصور ألواح في حضرة الله شبيهة بالألواح المستعملة في المدارس[٥٠]، فإن العلم الإلهي غير متناه في السعة والزمان، بل حتى عمر هذه الأرض لحظة غير منقسمة في الحضرة الإلهية. وبعض الناس يكشف المستقبل القريب بالاستدلال؛ فكون عمر

بن آدم معلوماً لعلام الغيوب ومسبب الأسباب، بل حتى أعمار كافة الآثار والأحداث والأحوال المترتبة على كثير من الأسباب والعلل- ليس مما يستحق إتعاب الذهن، وتعذيب الوجدان [٥١].

ليست الإرادة الجزئية البشرية قادرة على تجاوز حدود النية والاختيار والسعي والتدبير. وفي اقترانها بالفعل يظهر تأثير قوة خفية ميسِّرة أو عائقة. وهذه القوة الخفية هي ما يُسمى القدر في ديننا. فسواء اقترن سعي المرء بنتيجة أو لم يقترن فهو مستفيد أو متضرر، مثاب أو معاقب، على حسب حسن نيته أو سوئها: «إنما الأعمال بالنيات».

إيضاح عقيدة القدر باللعب:

أستمد الجرأة من قوله المنيف: «وما الحياة الدنيا إلا متاع»، فآتى- مع الاعتذار- ببعض أمثلة من اللعب، لإيضاح ماهية هذه الاختلافات.

معلوم أن هناك نوعين من اللعب قد انتشرا في الدنيا، هما الشطرنج والبليارد. وإن صُرف النظر عما يحدث للمرء من التأثيرات العصبية في أثناء اللعب بهما، فضمان النصر فيهما- للحذق والتدبير. ويبدو أن هذه الحال مؤيدةٌ لعقيدة القدرية والمعتزلة. وأما الألعاب التي من نوع الميسر، فالعامل المؤثر فيها الزهر (الفصوص) والحظ، ودخل المهارة فيها محدود، بل مفقود. فهي شبيهة بمذهب الجبرية. وبين النوعين المذكورين لعبتا الورق والنرد. يتوقف النصر فيهما على الدقة والمهارة، مع الحاجة إلى الزهر والورق. فحياة البشر شبيهة بهاتين اللعبتين الأخيرتين.

ويبدو أن مناظرات الأسلاف واختلافاتهم التي لخصناها آنفاً إنما نشأت من علة المنطق ولعب الكلام. فلو تأملوا رسائل حادثات العالم المنزلة من الملأ الأعلى ولاحظوها، بدل أن يتخذوا قواعد منطق علماء اليونان دستوراً لظهر وجود قدرة جزئية تمييزية وتنفيذية للبشر، مع تحديد اختياره وحركاته من قبل إرادة كلية، وصُدِّق قول أهل السنة.

وحقيقة التوكل لم تُفهم عند كثيرين، وهو من الأوامر الإلهية، فأخِذ بمعنى أن يترك المرء السعي والتدبير، ويظل واقفاً ويداه على خاصرتيه، معتمداً على عون الله، فصار بذلك مؤيداً لعقيدة الجبرية في الأمور الدنيوية. والأمر ليس كذلك. فالتوكل ليس بمانع من السعي والتدبير، ولا مروج للكسل والبطالة. إن كلمة «اعقلها وتوكل»- وهي جواب مسكت وحكمة صالحة لتكون دليل النجاة للبشر في الدنيا والآخرة وقد رد بها الرسول على شكاية أعرابي ترك ناقته وحبلها على غاربها، متوكلاً على الله- تؤيد هذا القول وهذا الرأي.

فالتوكل حق. وفائدته العظيمة الدنيوية أنه حافز على الصبر والثبات، مع الاعتماد على عون الله ونجدته في أوقات الحرج والعجز. فهو من هذه الجهة ترياق اليأس والفتور، وهما سم زُعاف للأفراد والأمم. إنه يقوى الروح عند شدائد الزمان ومهالكه، ويزيد الهمة والثبات، فيمنع بهذا كثيراً من السيئات والمخاطر. ومما يجدر بالذكر أن شيوع حوادث الانتحار في الأزمان المتأخرة ناشئ عن زوال الاعتقاد والتوكل من الأمة (٥٢)

وموجز الكلام أن التوكل ليس بمانع للتدبير، وإنما هو بالعكس من ذلك، عامل مؤثر يطرد اليأس، فيشجع على السعي والاجتهاد، ويقوي العزم والثبات.

وغريب أن يعتبر الأوروبيون الشرقيين عامة والمسلمين خاصة- من أتباع مذهب الجبرية، الذي اختاره فريق ضال من المسلمين، فيحملوا انحطاطهم في الأزمان المتأخرة على الخمول والإهمال الناشئين من هذه العقيدة. وأما إرادة شباننا المتحذلقين- الذين درسوا أطرافاً من العلوم- إنكار وجودهم التاريخي بذهابهم السقيم إلى أن الدين مانع للرقي، وأن الدخول ضمن الأمم المتمدنة يقتضي الإلحاد- ففسادٌ ناشئ من الإهمال في تعليم العقائد، ومن الغرور والأنانية الناجمين من الجهل المركب.

لا يُتصور عمىً وجداني كحسبان دين مانعاً من الرقي، وهو يحوي دساتير وحكماً من مثل قوله تعالى: «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى»، و«هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون»، و«أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل»، و«ياأيها الذين آمنوا خذوا حِذركم»، و«ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة». ومثل قول النبي صلى الله عليه وسلم: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً»، و«اطلب العلم من المهد إلى اللحد»، و«طالب العلم بين الجهال كالحي بين الأموات»، و«فضل العلم أحب إليّ من فضل العبادة»، وأمثال ذلك.

والواقع أن هناك فساداً وانحطاطاً، ولكن أسباب هذا الفساد والانحطاط الحقيقية ليست في الدين، بل في إهماله.